مقتل كاتب مغمور!

رواية بوليسية

علاء سعد حميده

عضو الرابطة العالمية للأدب الإسلامي العالمية

أعمال سابقة منشورة للكاتب

١- رواية حتى لا تموت الروح رومانسية حركية. ٢٠٠٨

٢- أخت على آخر الزمن شبابية دعاة جدد. ٢٠١٠

٣- بتوع كله رواية بالعامية المصرية. ٢٠١٢

٤- كتاب دولة النبي من السيرة النبوية. ٢٠١١

٥- حوارات على قهوة الحرافيش. ٢٠١٣

٦- خيل الفرنجة رواية تاريخية. ٢٠١٤

٧- خريف الوهم توثيقية نشر الكتروني. ٢٠١٦

٨- رواية كبسة دجاج اجتماعية أحوال المغتربين. ٢٠١٩

٩- رواية المليونير الحافي اجتماعية بيئة العمل مكة المكرمة. ٢٠٢٢

١٠- رواية الدرويش اجتماعية تاريخ حديث. ٢٠٢٢

١١- كتاب سمات دولة النبي من السيرة النبوية. ٢٠٢٣

١٢- رواية محاكمة المساعد جميل بوليسية حقوقية بيئة العمل دمشق سوريا. ٢٠٢٣

١٣- رواية ٢٣٦ ساعة رواية اجتماعية. ٢٠٢٣

١٤- دائرة الاغتيالات تاريخية بوليسية توثيقية. ٢٠٢٤

١٥- مجموعة غير حقيقي عاطفية رقيقة. ٢٠٢٤

١٦- رواية فرح زيزي. اجتماعية.

١٧- رواية رؤوس بلا عمائم رواية تاريخية.

١٨- رواية جمهورية فتحية. اجتماعية تاريخ حديث.

(١)

مرّت ليلة هادئة أُخرى على منزل أسرة محمد الباجوري.. والمنزل نفسه يقبع في وسط المدينة الهادئة الجميلة التي تبعد عن العاصمة نحو مائة كيلو متر في اتجاه الريف الأكثر هدوءًا وأقل صخبًا وضجيجًا، وأحيانًا أقل حوادث وإن لم تكن الحياة فيه خالية من الإثارة تمامًا كما يظن البعض..

انبعث صوت هادئ من غرفة حسام لأغنية حمزة نمرة:

"اسمعني .. انت اللي بتضيعني.. أحلامي.. انت اللي قضيت عليها.. طب فاضل ليّ ايه؟.. للماضي بترجعني عايز تحبسني فيه....."..

تسلّل الصوت خافتًا إلى غرفة مكتب محمد وهو يجلس أمام "اللاب توب" يتابع آخر أخبار اليوم على "النت".. تسلَّلت مع الصوت الخافت المنَّغم ابتسامة وقورة إلى وجه محمد.. هزّ رأسه وهو يشعر بمزيد من الرضا عن الذات!!

أقبلت عفاف، وعلى شفتيها ابتسامة واسعة، حيَّت والدها في احترام.. سحبت كفَّه من فوق مفاتيح "اللاب" برقة، وطبعت قُبلة عليها، وهي تقول:

- سأذهب للنوم يا بابا.. هل حضرتك تريد شيئًا مني قبل النوم؟

كان من عادة محمد في مثل تلك الأُمسيات أن يكتفي بابتسامة رضا مع التفاتة عابرة بوجهه عن شاشة "اللاب" إلى وجه عفاف.. وربما تمتم تمتمة مبهمة متداخلة الحروف تُترجَم في عقل ابنته مباشرة إلى:

- شكرا يا حبيبتي.. تصبحين على خير.

لكنه لم يفعل هذه الليلة.. اعتدل في جلسته، واستدار إليها بكامل جسده.. مدّ ذراعه فجذبها إليه وضمها إلى صدره، مسَّد شعرها بحنان.. وهمس برقة:

- تشبهين والدتك كثيرًا يا عفاف.. تشبهينها في المظهر وفي الخِصال، بارك الله فيكِ.. أعلم أنكِ تستطيعين مواجهة ظروف الحياة وقسوتها كما كانت يرحمها الله.

انفلتت عفاف من بين أحضانه بخفّة، وطبعت قُبلة أطول على رأسه وهي تهتف بالدعاء:

- ربنا يبارك لنا فيك يا بابا ويبقيك لنا، بوجودك بيننا نتخطَّى أي صعب..

عادت وطبعت قُبلة أُخرى على كفه، ثم انسلَّت وهي تهمس:

- تصبح على خير

عيناه ظلت تحمل لها نظرة أكثر حنانًا من الليالي السابقة، وهو يرد بكلمات واضحة:

- وأنتِ من أهل الخير والسعادة والرضا يا حبيبتي.

بخروج عفاف من غرفة المكتب ظل محمد غارقًا في أفكاره، وعلى وجهه آثار ابتسامة غامضة.. لم يلتفت إلى شاشة "اللاب" على غير عادته.. إلا عندما نبّهه صوت التنبيه المنبعث مع بعض الإشعارات الواردة إلى حسابه على "الفيس بوك"..

عاد محمد إلى العمل على حاسوبه، وانهمك في العمل تمامًا، بين القراءة والمتابعة وحفظ بعض الملفات، وكتابة بعض الردود القصيرة هنا وهناك.. لم يسمع صوت حسام الذي تسلّل بهدوء إلى غرفة المكتب، حتى صار بمحاذاته تمامًا بدأ في الحديث..... قاطعه والده معاتبًا في وُد وعلى وجهه ابتسامة ذات مغزى:

- عشرات المرّات قلت لك إذا دخلت أي مكان فألقِ السلام بصوت مرتفع

انقلبت ملامح وجه حسام في دهشة ممزوجة بعلامات نفي تهمة يلصقها به أبوه قائلا:

- والله ألقيت السلام وأنا على عتبة الغُرفة لكن حضرتك كنت مشغولا فلم تسمعني

اتسعت ابتسامة محمد وقال مداعبًا في خبث:

- آخر شيء سمعته يأتي من ناحيتك..

ثم غير نبرة صوته وحاول أن يقلِّد صوت "حمزة نمرة":

- اسمعني انت اللي بتضيعني.. طب فاضل لي ايه..

تلعثَم حسام وقال في اعتذار وقد خفض وجهه إلى الأرض:

- آسف يا بابا.. لم أكن أعلم أن صوت "التاب" مُرتفع إلى هذا الحد.. آسف جدًا على إزعاج حضرتك.......

قاطعه محمد في ود:

- لم يكن الصوت مرتفعًا.. لكنه كان قويًا.. قويًا في مضمونه يا حسام.. تعرف يا ولدي؟.. هذه في الحقيقة هي أزمة الأجيال الحقيقية.. كل جيل يحاول أن يسجن الجيل الذي يليه في ذاته.. دون أن يترك له حرية التعبير عن نفسه في ضوء متغيّرات زمنه.. سامحني يا بُني فأنا أيضًا أظل ابن جيلي ومعبِّرًا عن سطوته في مواجهة جيلكم، وإن لم أُرد فعل ذلك.. لم أُرد فعل ذلك حقيقة.. لكن.....

علَّق جملته.. فبادره حسام وما زال مُطرقًا إلى الأرض:

- لا يا بابا حضرتك لستَ كذلك أبدًا.. حضرتك واحد من جيلنا بالتأكيد.. أنتَ تعيش معنا ليس بجسدك ولا بحنانك فقط.. حضرتك تعيش حياتنا في كل تفاصيلها..

خفض صوته وأضاف في حياء وتلعثم:

- حتى.. حتى إنني.. أشعر في أوقات كثيرة أن حضرتك لست أبي وإنما صديق.. صديق من نفس العمر.. وكل ما في الأمر أنّه بحكم كثرة السفر والترحال مرَّ بتجارب كثيرة مثرية فتكوَّنت لديه خبرة حياتية أكبر مني.. لكن حضرتك تظل أقرب إلى صديق.....

قاطعه والده في اعتراف:

- هذا يا حسام ما أردت أن أنقله لك لتشعر به.. لكنَّ الحقيقة يا ولدي تظل بعيدة عن ذلك.. يبقى الوالد والدًا وإن حاول أن يتظاهر بغير ذلك.. الأب يبقى مسؤولا عن سلامة أبنائه الصحية والنفسية ويؤمِّن لهم ما يظن أنه الطريق نحو مستقبل أفضل.. التجارب والخبرات الحياتية تسجن الأب في قالب.. وتسجن الأبناء معه في ذات القالب.. سامحني يا حسام فتلك هي الحقيقة، ولو كانت رغمًا عني..

فكَّر حسام في حديث والده واكتسى وجهه بملامح الدهشة والعجب، وهو يهتف بقوة:

– أبدًا .. أبدًا يا بابا.. حضرتك دائمًا نِعم الصديق.. أما موضوع أغنية حمزة نمرة هذه فيمكن أن نتحدَّث فيها غدًا إن شاء الله.. فحضرتك من الواضح أنَّك مشغول الآن.. وأنا بعد إذن حضرتك أريد أن أذهب للنوم..

–تصبح على خير يا ولدي..

–وحضرتك من أهل الخير يا بابا

تحرَّك حسام نحو باب الغرفة حينما استوقفه نداء قوي من والده:

- حسام..

توقَّف على الفور وهو يلتفت في قوة منتبهًا ودون أن ينبس بكلمة.. قال والده:

- رغم أنّ عفاف هي أختك الكُبرى، ورغم أنّي أعرف مدى حنانها وعطفها.. ورغم أني أعرف أيضًا خُلقك وتقديرك.. لكني أنبِّهك يا ولدي إلى أنّ الفتاة تبقى ضعيفة خاصة إذا صارت يتيمة، وتحتاج إلى ذراع قوية لترتكن إليها.. كن أنت هذه الذراع دائمًا يا حسام.. عدني بذلك

اندفع حسام إلى والده وانكبّ على كفه يقبلها – وهو الأمر الذي كان نادر الحدوث منه، فلم يكن حسام من الذين يجيدون التعبير عن مشاعرهم بسهولة–وهمس في رقة:

- ستظل حضرتك السند والذراع القوية التي نرتكن إليها أنا وعفاف دائمًا وحتى آخر العمر..

غمغم والده في غموض مكررًا عبارة ولده:

- حتى آخر العمر..

انصرف بعدها بكليَّته إلى شاشة الحاسوب إيذانًا بانتهاء المقابلة مع ولده الذي انسل خارجًا من غرفة المكتب بنفس الهدوء الذي دخلها به!

تابع محمد ما كان يقوم به على الحاسوب قبل مجيء حسام، شعر ببعض الإرهاق، فرك عينيه بكفه، وحاول كتم تثاؤبه برفع باطن كفه الأيسر مغلقًا فمه وتعوَّذ بالله من الشيطان الرجيم.. ثم استكمل رسالة شوق وهيام وعشق إلى زوجته الحبيبة.. تمنّى من كل قلبه لو كانت اللحظة "أون لاين".. ليرَ رد فعلها على رسالته.. يشتاق إليها بكل كيانه.. لو تفهم فقط حقيقة ما حدث!! لم يصله ما يدل على أنها ساهرة على

النت.. تثاءب مرة أخرى، فنهض متثاقلا.. داهمه إحساس مقلِق بأنه نسيّ شيئًا، أخذ يتلفَّت حوله، كل شيء في مكانه.. "الموبايل" في يده.. استغرقه إحساس الفقد أو التيه مما ضاعف من حيرته وقلقه.. قرّر أن يتوضأ ليطرد عنه الوساوس والهواجس.. استلقى على فراشه وظل يتمتم بذكره المعهود "لا إله إلا أنت.. سبحانك إني كنت من الظالمين" حتى استغرق في النوم..

****

شعرت عفاف بالقلق على والدها وهي تتساءل: "لماذا لم يستيقظ حتى الآن على غير عادته؟ هل تذهب لإيقاظه والاطمئنان على صحته، فقد يكون مريضا؟".. قرَّرت أن تتركه في نومه ساعة أُخرى لعلَّه سهر الليلة الفائتة أكثر من المعتاد.. تشاغلت بإنجاز بعض الأعمال لديها.. ثم أخيرًا قرَّرت إعداد فنجانين من القهوة، واصطحبتهما مع بعض الكعك إلى فراش والدها لتوقظه وتتناول قهوتها معه في الفراش لو أنه يشعر بالإرهاق!!

- بابا.. استيقظ يا بابا.. لقد تأخر الوقت.. ليست هذه عادتك..

لم تظهر على والدها الممدَّد في الفراش أمامها أي علامة على سماع جلبتها.. انقبض قلبها واندفعت نحوه تهزّه برفق.. ازدادت هزّاتها له حدّة، بلا أي رد فعل.. صرخت مستنجدة بشقيقها:"حساااام" لم تتلقَ جوابًا، فحسام ذهب مبكرًا إلى أحد دروسه الخصوصية للثانوية العامة.. حاولت عفاف قياس النبض وسماع ضربات القلب.. والنتيجة لا شيء.. أسرعت إلى الهاتف اتصلت بجدّتها والكلمات منخنقة في حلقها مع البكاء.. حاولت جدّتها الملتاعة تهدئتها ووعدتها أن ترسل إليها عمّها وتلحق به خلال لحظات.. ثم هاتفت الأستاذة إيمان زوجة أبيها في بيت أهلها.. لم يجبْ أحد.. ظلت جالسة بجوار أبيها الممدَّد على الفراش تنهمر دموعها في صمت وبلا صوت في انتظار النجدة.. ومشاعرها كريشة في مهب الريح يتقاذفها الأمل والرجاء والهلع من المجهول.. تذكَّرت فأخذت تُردد "إنا لله وإنا إليه راجعون" بدأت بها صامتة في نفسها ثم هامسة، أخذ الهمس يعلو ويرتفع حتى يتردّد صداه في أنحاء الغرفة التي أصبحت تشم منها رائحة الموت.. وتراه شبحًا جاثمًا فوق كل ركن من أركانها.. نهضت من مكانها وأخذت تدور في أنحاء الغرفة وهي تردد "إنا لله وإنا إليه

راجعون" بصوت أخذ يرتفع حتى التقى مع ضجيج جرس الباب.. هُرعت تجري إلى باب الشقة كأنما حضر عمها ذاك المخلِّص الذي يحيي الموتى بكل لهفتها وأملها ورجائها.. فتحت له الباب ليدلف ملتاعًا بوجهه الشاحب شحوب الموتى وقد انسحبت الدماء منه، تنحَّى بسرعة جانبًا ليفسح المجال للطبيب ذي الوجه الباسم بطبيعته، وإن حاول جاهدًا أن يرسم تجهمًا يتناسب مع جلال الموقف ورهبته.. لم يستغرق الفحص منه لحظات حتى همس في أُذن عمها الأستاذ حسن:

- البقاء لله..

لم تُظلم الدنيا في عيني حسن فحسب، لكنه شعر بالتيه.. لحظة من الضياع السرمدي.. فقدان التوازن عندما تنعدم الجاذبية الأرضية تمامًا لتجد نفسك تَسبح متخبِّطًا في مدار ممتلئ بالحواجز والمعوِّقات، تتخبّطك من كل اتجاه.. ولم تنهر عفاف وإنما انهار الأمل.. رأته أمامها جبلا من صخور ركمه زلزال غير محسوس فانهار في الحال ليصبح مجرّد تراب وشظايا تتطاير في الفضاء اللا نهائي.. لم تعدْ الأرض التي تقف عليها أرضًا لها قاع منظور، والسماء فوقها لم يعد لها وجود.. فقط فراغ مطلق لا يحدّه من جهاته الست حدا!!

****

بدأت عفاف تستجمع شتات نفسها قليلا بعد اكتمال عقد الأهل حولها، جدّتها فوقية، وإيمان زوجة أبيها، و نادية زوجة عمّها، كما كان عمّها حسن في الصالة يجري الاتصالات اللازمة لتجهيز ودفن المتوفي.. أمّا حسام فانتحى بنفسه جانبًا في ذهول غير قادر على استيعاب الموقف بعد.. نهرتها جدّتها فوقية من بين شهقات بكائها:

- كُفِّي يا عفاف عن هذا الهراء الذي تردِّدينه.. أكيد وفاة أبيكِ وفاة طبيعية، رأيت ابني بنفسي ليس في جسده أي أثر لشيء غريب أو غير عادي.....

قاطعتها عفاف في إصرار:

- عفوًا يا جدتي لقد كنت مع بابا قبل ساعات فقط من الآن لم يكن يعاني من شيء أبدًا.. غير أنه كان يتوقَّع قرب النهاية.. لقد.. لقد أوصاني بأشياء لا يوصي بها إلا مودِّع..

رفعت فوقية كفّها علامة على تذكر شيء، همست قائلة:

- انتظري يا ابنتي تذكّرت شيئًا.. فعلا مكالمة محمد معي ليلة أمس لم تكن عادية أبدًا.. لقد ظننت.. ظننت أنّه مقبل على سفر طويل..

ارتفع صوت بكاء إيمان متحولا إلى عويل، وما لبثت أن نهضت مسرعة إلى غرفة المكتب وأخذت تعبث بمفاتيح "اللاب".. أعادت قراءة رسالة "الفيس" التي قرأتها صباح اليوم قبل علمها بنبأ وفاة زوجها.. أخذت تشهق وانخرطت في نوبة بُكاء هستيري.. هتفت فوقية آمرة:

- دعيها يا عفاف.. دعيها يا بنتي تعبِّر عن مشاعرها المكبوتة.. البكاء في هذه الحال راحة.

اتفق الجميع على أن إحساس محمد بقرب منيّته كان واضحًا بالأمس.. أصرّت فوقية أن هذا شعور عادي ينتاب بعض الناس قبل وفاتهم ولا يدل على أنّ الوفاة غير طبيعية.. احتجَّت عفاف في حدة:

- دعينا نطمئن يا جدّتي.. قلبي يحدّثني أنّ هناك سرًا وراء الوفاة المفاجئة.. لن أسامح نفسي طوال عمري إن لم نتأكّد من هذه الناحية..

ضربت فوقية صدرها بكفّها وصرخت في انزعاج:

- يا بنية لن نكتشف شيئًا غير عادي.. كل الذي سنجنيه من وراء تلك المحاولة تشريح جُثة أبيك والإساءة إليه ميتًا بدلا من إكرامه بسرعة الدفن.. وستنطلق الشائعات، ويكثر القيل والقال.. لا يا عفاف لن نجني من وراء حماقتك هذه سوى المتاعب.. متاعب جمّة لا يعلم عواقبها إلا الله وحده..

همست نادية كأنها تحدِّث نفسها:

- وهل يضير الشاة سلخها بعد ذبحها!

إصرار عفاف على موقفها دفع عمّها حسن إلى حسم الأمر بعدما استشار إيمان وتحدّث إلى حسام ابن أخيه.. وجّه حديثه إلى والدته في اعتذار:

- معذرة يا أمي نحن مضطرون إلى استدعاء الطبيب الشرعي لتحديد سبب الوفاة.. فالطبيب الشاب الذي أرسله مكتب الصحة مشكوك في خبرته تمامًا.. هو يؤدِّي عملا روتينيًا بحتًا..

مصمصت فوقية شفتيها وقالت في تأفف:

- وماذا تريد من الطبيب سوى التوقيع على شهادة الوفاة واستخراج تصريح الدفن؟ أما العبث بأجساد الموتى فهذه تقليعات آخر زمن..

راعى حسن الانفعالات النفسية المحيطة بالموقف، هو نفسه لم يجد أي قدرة على الجدال، كل ما استطاع فعله هو تحقيق رغبة ابني أخيه وزوجته بالكشف عن أسباب الوفاة المفاجئة..

****

أومأ الطبيب الشرعي برأسه في أسى قال وهو يناول حسن نتيجة تشريح الجثة:

- الوفاة حدثت نتيجة الحقن في الوريد بجرعة زائدة من مادة مخدِّرة شديدة السُميّة، تؤدِّي عادة إلى سكتة قلبية خلال فترة تتراوح من ست إلى اثنى عشر ساعة!!

(٢)

بمجرد أن تفوّه الطبيب الشرعي بملخص تقرير تشريح الجثة انقلب منزل الباجوري رأسًا على عقب!

فعليًا استلم الشرطة زمام الأمور في المنزل.. خبير رفع البصمات.. وآخر لالتقاط الصور لكل ركن وكل مقتنيات المنزل.. وآخرون يفتّشون في كل بوصة.. علم حسام أنهم يبحثون عن إبرة الحقن وعن مادة المخدِّر المستخدمة في الحقن أو بقاياها أو أي شيء يشير إليها، أو إلى إبرة الحقن.. استمر التفتيش المنظَّم الدقيق لأكثر من ساعة دون الحصول على أي أثر..

واستخدم مفتش المباحث الجنائية "الرائد عماد" غرفة مكتب القتيل كمقر خاص لإجراء التحقيق.. قام بذلك عمليًا دون استئذان أصحاب المكان.. وعندما أطلّ عليه حسن في محاولة استكشافية عن إمكانية مرافقته في غرفة المكتب، تنحنح الرائد عماد، وسعل ثم قال شارحًا:

- تعلم يا سيد حسن إنّنا لا نريد إزعاج أفراد الأسرة في فترة العزاء هذه بالاستدعاء إلى قسم الشرطة.. لذا قرَّرت أن أباشر التحقيق في هذه الغرفة مراعاة لظروفكم..

أومأ حسن متفهمًا الموقف، وسأل بصوت يغلب عليه الحزن أكثر من أي مشاعر سلبية أخرى:

– هل نبدأ إجراءات التحقيق الآن؟ وهل يمكنني مرافقتك خلال هذه الإجراءات؟

–سنبدأ حالما ينتهي المعاون من بعض الفحوصات الروتينية في المنزل.. وسيكون من الأفضل أن يدخل إليّ أفراد الأسرة بشكل منفرد.. وسأوافيك بنتيجة ما دار في نهاية جلسة التحقيق.. أحب أن أرى أولاد القتيل أولا..

أومأ حسن برأسه موافقًا على ما لا يملك حياله سوى الموافقة.. أضاف الرائد بعد برهة:

- تستطيع أن تقدِّم لنا خدمة جليلة يا سيد حسن إن كان في الإمكان عزل من يتم استجوابه عن بقية أفراد الأسرة في غرفة منفصلة.. أريد أن تشرف بنفسك على هذا الأمر دون الحاجة إلى استخدام أحد الجنود.. لا أريد من حيث المبدأ أن أثير السخط بين أسرتكم أو أشعرهم بأنهم من بين المشتبه فيهم بأي حال.. أريدك أن تنفّذ لنا هذه الخدمة بشكل ودي..

ابتسم ابتسامة لزجة وهو يرفع وجهه ويضيف بغموض:

- بشكل ودي تمامًا

****

دلفت عفاف إلى غرفة المكتب.. حدجها المفتش بنظرة فاحصة، كانت فتاة متميّزة بكل تأكيد رغم حزنها الواضح على وجهها ولغة جسدها، إلا أنَّها حافظت على سمت التميّز الواضح، كانت ترتدي عباءة منزلية سوداء، بدا الرداء بسيطًا لكنه كان أنيقًا كذلك، وطرحة لونها يميل إلى السواد تغطِّي بها رأسها وعنقها.. كانت فتاة طويلة نحيلة خمرية اللون، لها نظرات حادة معبِّرة، وثقة واضحة بالنفس، وقدرة على التحدِّي ومواجهة الحقائق برباطة جأش لا تتناسب مع سنِّها، أشار لها المفتش بالجلوس على المقعد المقابل للمكتب بحيث يُبقيها في مواجهته وتحت نظراته المدقِّقة.. لم يفته نظراتها في أرجاء الغرفة كأنها تريد أن تذكّره أنّ الغرفة في الأصل هي غرفة مكتب أبيها، وأنّ المفتش بمثابة ضيف لديها وليس العكس!!

سعل المفتش عماد وقال معتذرًا:

- آسف يا آنستي.. طمعنا في كرم ضيافتكم إلى أقصى حد.. لكن كما ترين هدفنا واضح.. نريد الوصول إلى الحقيقة.
- لا عليك حضرة الرائد.. أنا تحت أمرك.. أرجو أن تبدأ الإجراءات مباشرة دون مقدِّمات، فكما تعلم ما زالت أمامنا الكثير من الإجراءات لتجهيز الجنازة!

أفصحت نظرته الجانبية إلى الرقيب نادر عن مدى إعجابه بقدرة الفتاة العملية على تولي زمام الأمور.. قال بتلقائية:

- نبدأ بالأسئلة الروتينية.. الاسم والسن والمهنة والعنوان......

- عفاف محمد الباجوري.. واحد وعشرون عامًا.. طالبة بالفرقة الثالثة كلية إعلام جامعة القاهرة.. العنوان، كما ترى..

رفعت يدها ورأسها في حركة معبِّرة عما تعنيه.. لم يُخفِ الرقيب نادر إعجابه التام بقدرتها على التعبير بلغة الجسد وهو يسجِّل العنوان المدوّن من الأصل أمامه أعلى أوراق التحقيق..

سألها الرائد عماد مباشرة:

- ما الذي دفعك للشك في أنّ وفاة والدك ليست وفاة طبيعية؟
- مجرّد هاجس سيادة الرائد.. نوع من.... في الحقيقة لا أجد الكلمة المعبرة بدقّة، لا.. لا أريد أن أطلق كلمة "إلهام" فهي كلمة ذات مدلولات واسعة كما تعلم.. يمكنك أن تطلق عليه الحدَس.. حدَس المرأة!

غمغم الرائد عماد:

- الحاسة السادسة للنساء.. نعم أرى أنّ هذا قد يكون وصفًا مقبولا.. أكملي أستاذة عفاف...
- لعلي لم أقل ما يفيد بعد..
- نعم، نعم.. لذلك أرجو منك الاسترسال في تلك المسألة بالتحديد مسألة الهاجس وحدَس المرأة.. لماذا داهمك هذا الإحساس؟ لو فتشتِ في ذاكرتك قليلا ستكتشفين كثيرًا من الحقائق والتفاصيل الدقيقة.. فلا شك أنّ ما نطلق عليه "الحاسة السادسة للنساء" ما هو إلا ترجمة واعية لقدرتكن الفائقة على رصد التفاصيل الدقيقة التي تسبب الحدَس، دون القدرة بالضرورة على تذكُّر تلك التفاصيل أو القدرة على شرحها..

علَّقت بنفاد صبر:

- لقد قلتها سعادتك.. دون القدرة على تذكُّر التفاصيل...

رفع كفّه محتجًا:

- لا يا آنستي.. نحن نحقِّق في جريمة قتل.. والتحقيق في جريمة، لا سيما إن كانت جريمة قتل، يتطلَّب حفز الذاكرة لتذكُّر أدق التفاصيل وأقلها أهمية في نظر غير المختصين.. تعرفين أُركِّز معك تحديدًا على تلك النقطة

الجوهرية.. فحسام مثلا لن يستطيع تذكُّر تلك التفاصيل التي تستطيعين أنت تذكرها بدقّة.

أعادت عفاف رواية ما حدث ليلة وفاة أبيها محاولة أن تجهد ذاكرتها لذكر أدق التفاصيل التي كان يستوقفها عندها المفتش ويدوّن ملاحظاته عليها ثم يطلب منها استكمال روايتها.. لقد أجهدها تمامًا وأطال معها الاستجواب – إن جاز التعبير– وكرَّر على مسامعها أسئلة مما أشعرها بالضجر.. لكنه ابتسم في وجهها أخيرًا وهو يقول:

– آسف يا آنسة أجهدتك وأضجرتك في وقت أنت في أمسّ الحاجة فيه إلى من يخفِّف عنكِ أحزانك.. لكني أريدكِ أن تثقي أولا أن حدسك وروايتك لأحداث الليلة الفائتة ستكون حاسمة في كشف غموض الجريمة

التقط أنفاسه ثم أضاف في ثقة واعتزاز:

– وثقي ثانيًا أنّه إن كان ثمّة مجرم فلن يفلت من العقاب..

استوقفت عفاف عبارة "إن كان ثمّة مجرم" أدارت العبارة في رأسها.. همَّت أن تسأل المفتش، كما كان يتردَّد في رأسها أيضًا عدد من الأسئلة الأخرى بخصوص ثقافة وطريقة تفكير المفتش عماد.. لكنَّ الرائد عماد صرفها بإشارة صارمة من كفّه ونظرة أكثر صرامة.. خرجت عفاف من غرفة المكتب لتجد عمّها حسن يشير لها بدخول غرفة المعيشة.. في الوقت الذي يسمح فيه لشقيقها حسام بالدخول إلى غرفة المكتب!

كوّن الرائد عماد فكرته المبدئية عن حسام.. كانت فكرة مغايرة عن تلك التي كوّنها عن عفاف.. فحسام هذا الفتى الطويل نحيل الجسم حد الهُزال، أسمر الوجه، وقد بدأ ينبت شعر الشارب فوق شفته، بدا له ذا شخصية مختلفة عن شخصية شقيقته.. كان أكثر انطوائية وأقل قدرة على التعبير عن مشاعره، ولم يكن يمتلك جُرأة عفاف على المواجهة ولا ثبات أعصابها.. وعلم أنّ حسام منشغل بدراسته ودروسه في الثانوية العامة هذا العام، تدرّج الرائد عماد في أسئلته إلى حسام متلطِّفًا ومراعيًا طبيعة شخصيته إلى أن سأله:

- الآن أريدك يا حسام أن تطلعني على حقيقة العلاقة بينك وبين أبيك؟ كيف كان يعاملك؟ شعورك تجاهه كان يغلب عليه الحب؟ الاحترام؟ المهابة؟ الخوف؟ الصداقة؟"..

نظر إليه حسام مليًا، وأطلّت علامات الدهشة على ملامح وجهه من هذا السؤال، صمت في محاولة لتركيز ذهنه لبعض الوقت، ثم شرع في الإجابة متردّدًا:

- أبي.. أبي كان كل شيء بالنسبة لي.. كان حياتي.. كنّا نعتمد عليه في كل شيء...

تردَّد حسام في إيجاد كلمات مناسبة للتعبير أكثر من ذلك.. صمت متحيرًا.. أنقذه عماد بسؤال:

- أفهم من ذلك أنّ والدك كان يلغي شخصيتك؟!

بدت الدهشة أكثر على وجه حسام وقال في فزع من الفكرة:

- كلا طبعًا.. لم أقصد هذا المعنى أبدًا في حديثي معك حضرة الرائد!!
- ألم يكن والدك يتّخذ كافّة القرارات الخاصة بك نيابة عنك.. ألم يكن يقرّر لك ما يجب أن تُحب وما يجب أن تكره وما يجب أن تفعل؟

بدا حسام ملتاعًا من تلك الفكرة، قال:

- لا يمكن وصف الأمر على هذا النحو أبدًا.. لقد.. لقد كان أبي يشاركنا القرار.. لا يقرِّر لنا.. أعتقد أن حضرتك تعي جيدًا الفرق بين المشاركة وبين الوصاية.. لا لم يكن أبي يعيش دور المهيمن على كل شيء.. لكنه في الوقت نفسه كان شريكًا.. شريك فاعل في كل شيء.. كان كما الصديق المقرَّب...

قاطعه عماد:

- وعند الاختلاف في الرأي.. قرار من هو الذي كان ينفّذ؟ قرارك أنت أم قرار والدك؟

- صدِّقني لم نكن نختلف من الأساس..

-بالتأكيد يا حسام لا بد أن يحدث خلاف واختلاف.. لا تقنعني أنّ فارق في العمر بينك وبين أبيك أكثر من ثلاثين عامًا، ولا يحدث بينكما اختلاف في الرؤى؟! بل صدام كذلك؟!

قال حسام في إصرار:

- لم تكن تعرف بابا يا حضرة الرائد.. لم يكن يجعل الأمور تصل إلى هذا الحد أبدًا.. لم نكن نختلف أبدًا..

سأله عماد بشكل مستفز:

- أفهم من ذلك أنّه قد ألغى شخصيتك تمامًا وحوَّلك إلى نسخة مصغّرة منه؟
- لا يمكن أن تفهم جوابي على هذا النحو أبدًا.. أكرّر حضرة الرائد أنت للأسف لم تكن تعرف والدي أبدًا..
- للأسف يا أخ حسام.. ولذلك فأنا أريد أن أعرفه من خلالك.. أريد أن أكوّن صورة واضحة له عن طريق حديثك عنه..

رفع عماد رأسه إلى أعلى حيث صورة جانبية لمحمد الباجوري معلَّقة في زاوية على الحائط.. لاحظ الشبه الواضح بين النظرة الجانبية للوالد وابنه الجالس قُبالته، ضرب على المكتب بقبضته في حركة معبِّرة، ثم قال مستحثًا:

- هيا يا أخ حسام.. عرفني أكثر على والدك.. على طريقة إدارته للأسرة؟..طريقة تعامله معكم؟ طريقة اتخاذ القرار في هذا البيت.. طريقة اتخاذ قرار في أمور تتعلق بمستقبلكم أنت وشقيقتك..

علَّق أسئلته قليلا وهو يضيِّق عينيه، ثم نهض وأخذ يدور حول حسام بطريقة ذكَّرته بممارسات رجال التحقيق في الأفلام والروايات البوليسية مما جعله يبتسم رغمًا عنه وعن الموقف الذي هو فيه، أدرك أن الرائد عماد الآن يُرهبه بأن يجعله أسفل ناظريه ويتحرَّك حوله مسببًا له قدرًا من الإرباك والحيرة.. ساعدته قراءاته السابقة على التماسك.. باغته الرائد عماد:

- قل لي يا أخ حسام.. كيف التحقت شقيقتك بكلية الإعلام؟ هل كانت رغبتها أم رغبة أبيك؟

قرَّر حسام أن يلعب لعبة الأعصاب مع المحقق قال:

- وهل تصدّقني أو تفهمني يا حضرة الرائد لو قلت لك إنّ رغبة أي منا أنا وعفاف لم تختلف أبدًا مع رغبة والدي رحمه الله؟
- لا.. لا يمكنني أن أصدِّق هذا أو أفهمه.. إلا إذا كان والدك ديكتاتورًا..

هبَّ حسام واقفًا كمن لدغته حيَّة قال في تحدٍ:

- سيدي الرائد لا أسمح لأي أحد أيًا كان أن يطلق هذا الوصف على والدي أبدًا.. حتى ولو كان المفتش الذي يحقق في طريقة موته..

قال الرائد في محاولة لتهدئة أعصاب حسام الثائرة وهو يربت على كتفه:

- اجلس يا حسام.. اجلس يا أخي..

التفت إليه حسام مواجهًا في تحد:

- ولن أجلس حضرتك.. أنا لست متَّهما لتمارس معي أساليب محقّقي البوليس.. أظن أننا الآن في نقاش ودي متساو.. أنت تقف لتدور حولي.. أنا أيضًا أقف لأدور حول حضرتك بنفس الكيفية
- أحب أن أصحّح لك يا سيد حسام.. نحن نحقّق في جريمة قتل.. لسنا نلعب لعبة في تحدي الأعصاب.. ومع ذلك إن كان أزعجك وصفي لوالدك بالطاغية.. فأوجد أنت وصفًا مناسبًا لوالدك الراحل.. رجل كان يختار لأبنائه كل شيئ ويفرض عليهم اختياراته لدرجة أنّه ألغى شخصياتهم.. لا هذه كلمة قد تزيد توتّرك.. دعنا نقول قد وحّد شخصياتكم في شخصيته، فعشتم في جلبابه.. ماذا نطلق عليه؟ أب ديمقراطي؟!

ابتسم الرائد عماد وأضاف:

- مصطلح الديمقراطي في هذه الحالة يذكّرني بوصف الحزب الوطني المنحل الذي ثارت عليه مصر كلها في ٢٥ يناير بالحزب الوطني الديمقراطي..

لم يبتسم حسام لدعابة الرائد، وأجاب في جدّية المثقف المؤمن بما يقول:

- والدي كان يطبِّق الديمقراطية التشاركية.. كنا نشترك معًا في كل القرارات التي تخص الأسرة.. بعض هذه القرارات كانت تخصه هو شخصيًا، وبعضها كان يخص عمله المهني.. نعم لقد كان والدي رحمه الله ديمقراطيا تشاركيا.

علّق عماد في تحفظ:

- أعرف هذا النوع من الديمقراطية التشاركية.. وهي الديمقراطية التي ليس لها إلا نتيجة واحدة، هو ما يؤمن به الزعيم.. كلها يا أستاذ حسام تنويعات لفكرة واحدة.. أو تستطيع القول توزيعات لإصدار واحد.. الـ"سيستم" واحد و"فيرجن" مختلف.. هتلر.. موسيليني.. ستالين.. تيتو.. نهرو.. عبد الناصر.. كلهم صور على عملة واحدة وإن تعدَّدت لغات الكتابة عليها ودول إصدارها.

باغته حسام بتعليق استفزازي:

- ضابط شرطة يعمل في السياسة!! أليس محظورًا عليكم العمل بالسياسة يا سيادة الرائد؟

أجابه عماد في برود:

- بالطبع لا يمكننا العمل في السياسة.. لكنَّ الشرطة في الواقع هي التي تصنع السياسة ثم تفرضها بقوة الصلاحيات المطلقة المخوَّلة لها.. بالمناسبة يا سيد حسام لقد لاحظت ثقافتك السياسية الواسعة، فما هو الحزب الذي تنتمي إليه؟

قابل حسام بروده ببرود مماثل، أجاب:

- لا يا سيدي الرائد لم أتورَّط في السياسة إلى هذا القدر.. لا.. أنا لا أمارس السياسة ولا أنحاز مجرد انحياز لأي حزب من الأحزاب القائمة.. أنا أنحاز للأفكار العبقرية فقط.. فكرة مثل الديمقراطية التشاركية
- نعم الديمقراطية التشاركية.. مثل والدك نعم.. أتفهَّم ذلك.. لكن قل لي بالمناسبة، ماذا كان انتماء والدك السياسي؟
- لم يكن له انتماء سياسي.. أبي رحمه الله كان يعمل في العمل العام بمفهومه الواسع.. كان يؤمن بإمكانية الجميع على التعاون والتكامل والعمل المشترك..

قاطعه عماد بدهشة مصطنعة بشكل مبالغ فيه:

- الجميع!! الجميع يا أخ حسام؟ أي العمل المشترك بين الإسلامي والليبرالي والعلماني والشيوعي والملحد والمسيحي؟!
- هذا أبسط وأوضح تعريف للمواطنة يا حضرة الرائد..

وضع الرائد عماد كفَّه في لطف على كتف حسام وقال متودِّدا:

- ربما لاحظت يا حسام أنني تعمدت استفزازك أثناء الحوار.. ما رأيك أنا أسميه حوارًا.. لا يمكنني أن أصف حديثًا ثقافيًا نفسيًا وسياسيًا على هذا القدر، لا يمكنني وصفه بالاستجواب أو التحقيق.. من خلال الحوار بدا لي أنني أخطأت في تقييم شخصيتك.. أنت رجل وتتميّز بالنضج والصلابة أكبر بكثير من سنك.. ورغم نضجك هذا تتميز أيضًا بقدر غير قليل من عناد المراهقين.. وربما..

خفض صوته وغيّر لهجته وسعل وهو يقول معتذرا:

- وربما قدر لا بأس به.. –لا تؤاخذني– من وقاحة الشباب..

همَّ حسام بالمقاطعة، أوقفه عماد بإشارة من كفّه:

- لا.. لا تقاطعني يا حسام.. وقاحة سن الشباب هذه، وقاحة مقبولة ومبرَّرة.. وقاحة بريئة.. بريئة من النفاق الاجتماعي.. لقد استطعت يا سيد حسام أن تصحِّح لي بعض المفاهيم عن والدك الراحل.. ليس بحديثك عنه، وإنما بطبيعة شخصيتك.. المثقف الصلد العنيد.. صفات رائعة أليس كذلك؟

قرَّر حسام أن يغامر ويعتبر ذلك مدحًا فشكره عليه، وهمَّ بالانصراف حتى قبل أن يأذن له.. ناداه الرائد عماد بصوت قوي حاسم، توقّف ونظر إليه مبغوتًا، قال عماد وعلى وجهه ابتسامة متناقضة كل التناقض مع صرامة ندائه:

- كنت أريد أن أقول لك الكلمة التي تسمعها في الأفلام البوليسية –تستطيع الانصراف الآن– لا داعي لأن أقولها لك.. حيث قررّت أنت الانصراف من تلقاء نفسك"..

استدار الرائد عماد إلى الرقيب نادر وسأله عن رأيه في تلك المبارزة الفكرية بينه وبين حسام، أجاب الرقيب في صرامة:

- هذه عائلة ليست سهلة أبدًا يا سيادة الرائد.. إذا كان هذا هو حال الأولاد.. فكيف كانت شخصية القتيل؟!

قال الرائد مفكّرا بصوت مرتفع:

- شخصية القتيل.. إنّ ما يشغلني الآن هو شخصية القتيل، مفتاح حل اللغز كله يكمن في معرفة شخصية القتيل.. شخصية مركَّبة وعنيدة ومتناقضة.. ليس سهلا مع أسرة أو حتى عائلة كهذه أن نعرف الحقيقة وبدقّة عن شخصية القتيل.. وربما أنّه لم يكن قتيلا.

فتح الرقيب عينيه على اتساعهما دهشة وتساءل:

- هل أفهم من ذلك يا سيدي أنّك تفكّر في....

قاطعه عماد بصرامة:

- إنّني أقول ربما.. ربما فقط يا حضرة الرقيب.. أنا أسترح لك، وأفكِّر في وجودك بيني وبين نفسي بصوت مرتفع، فأرجو..

قال الرقيب نادر في شيء من كرامة:

- اطمئن يا سيدي، ثقتك في محلها تمامًا.. رقيب الشرطة الحقيقي لا يسمع، ولا يرى، ولا يتكلم

قهقه الرائد عماد وقال وهو يتهالك على المقعد من شدة الضحك:

- هذه هي.. هذه هي يا رقيب نادر الديمقراطية التشاركية التي شرحها لنا الفتى منذ قليل.. قمة التشاركية.. تسمع ولا تسمع.. ترى ولا ترى.. وعندما يأتي دورك في الكلام، أتحدث أنا نيابة عنك.. تشاركية.. تشاركية يا رجل.. لماذا لا تشاركني الضحك أيها الرقيب التشاركي؟

(٣)

لم يظفر الرائد عماد من الحاجّة فوقية- كما أَحب أن يُطلق عليها- بجديد بخصوص أحداث ليلة الوفاة، لم تستطع إفادته بشيء خاصة أنّها كانت بمنزلها، ولم تضف له إعادتها على مسامعه تفاصيل المكالمة الهاتفية الأخيرة بينها وبين ابنها القتيل شيئًا ذا بال، غير هذا الإصرار الثابت لدى نساء العائلة على فكرة "حدَس المرأة"!!

فكَّر عماد في نفسه وهو ينظر إلى المرأة المسنَّة الجالسة أمامه في حزن شديد وثبات وقوة تصل إلى حد التحدي –إن جاز الوصف-:"هذه الأسرة تتوارث الصلابة وقوة الشخصية كابرًا عن كابر!!".. كانت المرأة الجالسة أمامه على مشارف السبعين من عمرها، ملامح الحدِّة تغلب على علامات الطيبة على وجهها، لا تقهرها العاطفة.. أدرك من طريقة اختيارها لملابسها ومظهرها في هذا الظرف العصيب طبيعة ثقافتها.. كانت كما أخبرته لاحقًا نموذجًا صارمًا للمرأة التي قضت حياتها كلها في مجال التربية والتعليم، ملمّة بنظريات علم النفس، تفهم التلميحات البسيطة التي يرمي إليها الرائد بمهارة، وترد على بعضها بتحدٍ لا يقل عن تحدي حفيديها له!

سألها عن مدى إيمان ابنها الفقيد وتمسكه بالحياة.. أجابت في صلابة رغم العَبرة التي أخذتها فخنقت كلماتها في بداية حديثها مرة أو اثنتين:

- محمد الله يرحمه كان مؤمنًا جدًا.. كان قويًا متشبِّثًا بالحياة.. لا لم يكن من النوع الذي يكتئب إلى حد الانتحار سيدي المفتش..

قال عماد في دهشة بالغة:

- آه الانتحار!! ما الذي ألقى على خاطرك بهذه الفكرة العجيبة يا حاجّة فوقية؟!

أجابت ببرود:

- أنت الذي يحاول أن يشيع هذه الفكرة في نفوسنا يا سيادة المفتش..
- أنا لم أذكر كلمة انتحار ولا مرة واحدة حتى الآن.
- نعم حتى الآن.. لكن كل أسئلتك ترمي إلى ذلك.

رمش الرائد بعينيه وسأل بلهجة أكثر توددا:

- هل كان الفقيد شديد التدين في كل شؤونه؟

ببرود:

- لم يكن متزمِّتا..

أغلقت فمها بعناد جدّة..

أراد أن يتمرّد على عنادها ويصرخ في وجهها:

- من أتى بسيرة التزمت الآن؟!"..

لم يستطع الرقيب نادر إخفاء ابتسامة إعجاب بذكاء الحاجّة فوقية الذي يقفز على أسئلة رئيسه إلى ما لم يسأله بعد!

لمح الرائد ابتسامة نادر بنظرة جانبية خاطفة وحدّث نفسه:"وأنا الذي أمارس التشاركية معك يا نادر!.. تتشفّى في محنة رئيسك مع تلك العجوز؟ سوف نرى!".. وجّه سؤاله للحاجّة فوقية مستدرجًا:

- الفقيد لم يكن متزمتا، فكيف في رأيك كان محمد؟

أعجبها هدوءه وسيطرته على أعصابه رغم استفزازها له، أجابت في غموض:

- محمد الله يرحمه كان مثاليًا
- نعم أنا أيضًا أعرف أنه كان مثاليًا بالتأكيد، لكن سؤالي هو هل كان مثاليًا في أفكاره؟ أم مثاليًا في أخلاقه وسلوكه؟

لم تحتج لحظة واحدة في التفكير:

- كان مثاليًا في كل شيء مبادئه وأفكاره وأفعاله..
- إذن كان مُتعبًا؟!

علَّق السؤال، نظرت إليه نظرة متفحّصة كأنّها تقرأ ما لم ينطق به على ملامح وجهه، قالت في أسى:

- كان مُتعبًا لنفسه أكثر بكثير مما يُتعب الآخرين.

- كانت تضايقكم آراءه وتتعبكم تصرفاته؟
- كنّا نحبه..
- أعرف.. المثالية متعبة دائمًا، اسأليني أنا عنها..

قوّمته من جديد بنظرة متشكّكة، سألها مستدركًا:

- قلتِ يا حاجَّة فوقية أنّكم كنتم تحبونه،أُدرك ذلك، كل الأهل يحبون أبناءهم، حتى ولو كان من بينهم البطة السوداء..

همَّت بمقاطعته بانفعال، نهض مندفعًا كقذيفة رافعًا كفه باعتراض وصاح:

- ليس الآن يا حاجّة.. ليس الآن.. أريد أن أُمسك طرف خيط الحوار ولو لمرة واحدة"..

صمتت على مضض قرأه في ملامح وجهها، قال معتذرًا وهو يدور حولها:

- عموما أعتذر لك بشدة، فكل البط في هذه العائلة أبيض.. كلكم مثاليون.
- تقصد كلنا مُتعِبين؟! نعم نحن كذلك لكن بنسب..
- اتفقنا إذن.. بالمناسبة متى توقَّفتم عن حُب الفقيد؟

كان الرقيب نادر يتابع هذه المبارزة الفكرية باستمتاع مغلَّف بقناع من الجدّية الصارمة، ينتظر في لهفة لحظة انفجار الجدّة في وجه أساليب رئيسه التحليلية، كما تمرَّد حفيدها في وجهه من قبل!

تساءلت العجوز في بلاهة مصطنعة:

- كففنا عن حب الفقيد من؟!

قال بنفاد صبر:

- إيه بقى يا حاجّة؟ هذا غير معقول.. ليس أنتِ يا حاجّة من كففتِ عن حب محمد، أنا غبي يا سيدتي لا توجد أُم تكف عن حب ابنها.. أقصد الآخرين متى كفُّوا عن حبه؟
- لم يكف أحد عن حبه..
- إيه يا حاجة فوقية؟ أنت بلسانك قلت كنا نحبه.. سؤالي واضح كنتم هذه فعل ماض.. متى بدأ مَن حول الفقيد –دعينا لا نقول كفوا عن حبه–فلنقل امتعضوا من مثاليته الزائدة؟

لم يزد جوابها عن كلمتين:

- لم يمتعضوا....

انتظرها تكمل فلمّا أدرك أنّ هذا هو آخر ما عندها، عاد إلى كرسيه وهو يضحك، بسط كفّه في حركة معبرة وقال:

- كفى يا حاجة.. تستطيعين الانصراف.

أجابته بسأم:

- ما هذا يا سيادة المفتش؟ انتهينا من الاستجواب؟!
- حضرتك ما رأيك؟

أجابت بحذر:

- أنا لا رأي لي
- إيه؟ كيف؟ أنت الخير والبركة؟
- لا تسخر من شيبتي يا سيادة المفتش..

بلطف:

- قولي لي حضرتك ماذا أفعل؟ أنتِ لا تريدين التعاون معنا على الإطلاق.. حاولي يا حاجّة فوقية أن تساعديني.. هل كان الفقيد يراجع نفسه؟ يعترف بأخطائه؟ أم كان يعاند ويكابر؟
- لم يكن يخجل من الاعتراف بأخطائه، ومراجعة نفسه ومعاتبتها..
- إلى حد جلد الذات؟
- نـ..نعم إلى درجة جلد الذات..
- بالطبع هذا الأمر كان يصيبه بالاكتئاب؟
- ليس الاكتئاب بمعناه المرضي سيادة المفتش.. كان ينعزل فترة من الزمن يراجع نفسه ويحاسبها، ثم يعود أكثر قوة وصلابة..

سأل الرائد في اهتمام:

- ثم يعود أكثر صلابة وإصرارًا على نفس الأفكار والممارسات؟

قالت شارحة في امتعاض:

- كيف يعود لما جلد ذاته عليه؟ يعود أكثر إصرارًا على المثالية مع تغيير ما رأى أنه أخطأ فيه..
- نعم فهمت.. وهل كانت تطول فترات عزلته؟
- قد تكون عدّة ساعات.. تستطيع أن تقول يومًا أو بعض يوم، لم تكن علامات اكتئاب نفسي أبدًا يا سيادة المفتش..
- آه.. ألم يكن يحزن حزنًا عميقًا؟

أجابت بسؤال مشاكس:

- ومن منا يجد الفرح في هذه الأيام؟

تساءل في دهشة:

- ما هذا؟ لا تجدين ما يفرحك أبدًا في الحياة هذه الأيام؟

أجابت بسأم:

- قد أفرح نعم.. بنجاح أحفادي.. بمناسبة عائلية.. إنما الوضع العام كما ترى....

بترت عبارتها واكتفت بإيماءة معبرة من رأسها الصلد.. تردّدت أسئلة في ذهنه لم يفصح عنها، وعِوضًا عن ذلك سأل:

- في الفترة الأخيرة لم يجدّ في حياة محمد ما يصيبه بالتوتر الزائد؟ السأَم من الحياة؟ خلافات مع زوجته؟ مشكلات في العمل؟ متاعب مع أبنائه؟"

تبسّطت معه فوقية في السرد كأنها تحكي لحفيدها الصغير حكاية قبل النوم:

- سألتُ محمد الله يرحمه، كان ذلك قبل فترة قريبة: هل أحزنك هذا الأمر؟ أجاب في ثبات عجيب: أنا لا يحزنني شيء.. علقتُ في إكبار: ما هذا الإيمان العالي الذي يجعلك لا تحزن لشيء؟.. قال: الحمد لله رب العالمين على كل شيء، فكل الأشياء تتساوى في حياة الناس إذا كانوا واعين في الخطف أو في الأسر أو في المنفى.. فماذا يمكن أن يُفرح الرهينة أو الأسير أو المنفي أو يحزنه أكثر مما هو فيه؟!.. أجبته: يُفرح الرهينة إطلاق سراحها.. قال: يا أمي كلنا رهائن، فمن منا يطلق سراح من؟!!.. قلت له في قلق: إذن أنت حزين جدًا.. أنت في منتهى الحزن..

قال في برود: لم يعد للفرح أو الحزن معنى في حياتنا.. نحن في معركة طويلة ننتصر أو ننتصر.. وليس بينهما شيء!!.. فهمتني يا سيادة المفتش؟!

حكّ المفتش عماد رأسه ثم قال مفكِّرا:

- كان محمد صلبًا عنيدًا.. ولكنّه كان حزينًا بكل تأكيد.. كان كما واضح من قصّتك عنه يشعر بأنّه مخطوف.. رهينة.. أليست كل هذه علامات على الاكتئاب.. الاكتئاب الحاد المزمن؟!..

صمت لحظة ثم أضاف:

- أنتم يا حاجّة فوقية – اسمحي لي- عائلة عنيدة

هزت رأسها موافقة:

- نعم يا ولدي أعرف ذلك

نظر إليها ممتنًا فلأول مرة تناديه بولدي، قال:

- شكرًا لكِ

قالت في إصرار:

- هؤلاء الذين تسمّيهم معاندين لا ينتحرون يا سيادة المفتش..

أراد أن يسألها:"هل أغضبتك،لم عدتِ إلى لقب سيادة المفتش؟ أعتز بمهنتي جدًا لكنّني في حاجة إلى عاطفة أم مثلك".. لم يتحرَّك لسانه بشيء من هذا قال في تفكير:

- صعب.. من الصعب فعلا أن ينتحر هؤلاء الحالمون..

سعلت وبدا عليها الحرج.. رأى أنّ هناك أمرًا يعتمل بصدرها، قال بلطف:

- قولي ما شئتِ لا تتردّدي من قول أي شيء حتى وإن بدا لكِ غير ذي صلة بالقضية.

قالت متلعثمة:

- ولكن لماذا كل هذه الأسئلة ذات طابع التحليل النفسي؟ هل أنت مفتش مباحث أم طبيب نفسي؟!

ضحك الرائد ضحكة مجلجلة وقال:

- لا يا حاجّة.. امسحي من رأسك تماما فكرة (الخمسين في المائة في الثانوية العامة.."

أضاف وهو ما زال يضحك:

- ليس كل رجال الشرطة على وتيرة واحدة.. أنا مثلا أحضِّر ماجستير في علم النفس.. هذا طبعًا غير الدورات الكثيرة والدبلومات التي درستها في علوم التنمية البشرية!!

قاطعته معتذرة:

- ما شاء الله لا قوة إلا بالله.. ربنا يحميك لشبابك ويحفظك من كل سوء..

أشار بيده وقد مد ذراعه كأنه يريد أن يتشبث بهذه الدعوة في قبضته قال وعيناه تدمع من أثر الضحك:

- الله يحفظك يا حاجة فوقية أكثري من هذا الدعاء لي.. فأن يكون الإنسان متميّزًا ومثقفًا ومختلفًا بين زملاء عمله يجعله دائمًا عُرضة للأحقاد والضغائن.. فأكثري لنا من دعوتك هذه لتمنع عنا مصائب أهل الـ(الخمسين في المائة)..

ثم جلجلت قهقهته مجددا.. انتظرته الحاجة فوقية بأدب وقد شعرت بالتعاطف معه لأول مرّة كابنها.. أشار لها وهو يحاول التوقف عن الضحك:

- تستطيعين الانصراف الآن.. شكرا لك.

انصرفت فوقية وهي تعرج برجلها بسبب طول جلستها على وضع واحد أمام المفتش.. دخلت في أعقابها إيمان.. كانت كما قرّر عماد في نفسه "السيدة الشامخة".. سيدة مجتمع من طراز رفيع.. قوّمها عماد بنظرة باردة.. جميلة الوجه تبدو أصغر من سنها الحقيقي بعشر سنوات على الأقل، متوسّطة الطول، متناسقة القوام، تبدو في ملابسها المحتشمة غاية في الوقار والأناقة معًا.. مضت إلى المقعد المقابل له مرفوعة الرأس واثقة الخُطى تمشى في كبرياء غير متكلّفة.. لم يملك الرائد عماد نفسه من أن يبسط لها كفًا مشيرا بالجلوس قائلا في احترام:

- تفضلي يا فندم.
- شكرًا لحضرتك..

- أقدّم لك تعازيّ في فقيدكم الغالي..
- شكر الله لك.

أخذ الرائد عماد يبحث عن كلمة البداية الذي يحل بها رموز هذا التحفّظ الذي تفرضه تلك السيدة.. علم أنّها تشغل منصب مديرة علاقات عامة في إحدى الشركات الاستثمارية الكُبرى، ومحِاضرة دولية في الجودة الإنتاجية.. تنهال عليها الدعوات لإلقاء المحاضرات في عواصم الدول العربية والأوروبية.. وجد عماد ما يقتحم به عالم هذه المرأة الحديدية سألها بلباقة:

- آسف يا سيدتي على التطفّل بخصوص الحياة الشخصية.. لكن تدركين بالطبع أننا نحقّق في جريمة قتل.. هل يمكن أن تعطينا فكرة عن أسباب الخلاف بينك وبين الفقيد؟

أخذت إيمان وقتها تمامًا، حيث ظلّت تقيس الرائد بنظرات تقويم، ثم بدا أنها قرّرت أمرًا، فأجابت في غموض:

- لم يكن بيني وبين محمد رحمه الله أي خلاف من أي نوع..

احتج عماد قائلا:

- لكنّ جميع الأقوال أكدت أنّ......

قاطعته بهدوء كحد السكين:

- تسمح لي بسؤال يا حضرة الرائد؟
- تفضّلي يا هانم..
- حضرتك متزوج؟

شعر الرائد عماد بالحرج واندفع الدم إلى وجهه حارًا.. ونظر إليه الرقيب نادر نظرة جانبية شعر بحرارتها مما زاد في احتقان وجنتيه،أجاب:

- نعم.. ولكن......

للمرة الثانية تقاطعه بسكين هدوئها الحاد:

- إذن حضرتك تفهم ما يحدث بين الأزواج جيدًا.. أريد أن أوجّه لحضرتك سؤالا آخر أشد خصوصية لكنّني أخشى من أن أتسبّب لك في بعض الإحراج

سعل عماد محرجًا بالفعل وقال في دبلوماسية:

- تفضّلي بسؤالك.. ما دام يفيدنا في الوصول إلى الحقيقة

- دعنا حضرة المحقّق نجعله سؤالا عامًا وليس شخصيًا.. إنّ الذين يتزوّجون عن حب حقيقي ناضج يعرفون معنى وقيمة هذه النزاعات الزوجية.. أتعلم ماذا كان يُطلق عليها الراحل محمد؟

لأول مرة يشعر الرائد عماد أنّه يريد أن يعرف فعلا.. لا يريد أن يعرف من أجل التحقيق ولا القضية، ولكن يريد أن يعرف من باب الفضول أو ....، وهنا أحس بمدى خطورة تلك المرأة الجالسة أمامه في كبرياء.. ظل منتبهًا لها في انتظار استكمال حديثها دون أن ينطق، قالت:

- كان يسمّيها نزاعات حب.. وعندما كانت تتطوّر كثيرًا كان يطلق عليها (معارك حب)!

اغرورقت عيناها بالدموع رغمًا عن إرادتها.. لم تعبأ بمسحهما ربما حتى لا تلفت نظره إليهما.. فوّت الرائد عماد ملاحظاته، قال في غموض مماثل:

- فهمت..

أخذ ينقر بسن القلم على بعض الأوراق أمامه.. علمت أنها صدَّرت إليه التوتّر وهي ترمقه من طرف خفي.. استدرك قائلا:

- أفهم من ذلك أن الراحل لم يكن يتأثّر بمثل هذه المشاكسات العاطفية؟ أقصد لم تكن تزعجه إلى حد الحزن أو الاكتئاب؟

أجابت باقتضاب:

- بالطبع لا..

- فهمت من الحاجة فوقية أنّ محمدًا كان شديد محاسبة النفس لدرجة جلد الذات.. فما رأيك أنتِ؟

فكّرت قليلا ثم أجابت:

- هو كان شديد الحساسية، كان يراجع نفسه ويصحّح أخطاءه.. لكنّه كان يتقبّل هذه الأخطاء باعتبارها طبيعة بشرية لا مناص منها..

سأل متأمِّلا:

- ألم يكن من شأن حساسيته المفرطة تلك أن تتسّبب له بالإصابة بالاكتئاب النفسي؟"..

وجّهت له اتهامًا ببرود:

- أنت لم تجهد نفسك بقراءة بعض مقالات وأبحاث زوجي محمد رحمه الله يا حضرة الرائد.. كنت أظن أنّ أول خطوات البحث في هذه القضية هي محاولة معرفة شخصية الراحل من الداخل، وعِوضًا عن محاولة معرفة ذلك بنفسك من خلال تراثه الفكري والأدبي.. تحاول القفز على الحقائق من خلال تسقّط بعض الانطباعات من أهل الراحل ومعارفه.. لو كلَّفت نفسك بقراءة الجملة الأثيرة عند زوجي محمد لوجدتها: لا يوجد خطأ لا يُغتفر.. يوجد خطأ كبير أو فادح، وآخر أقل فداحة.. لكن أفدح الأخطاء قابل للإصلاح أو التبيان وكلّ الأخطاء قابلة للغفران.

تجاهل عماد بمرارة نقدها اللاذع لطريقته في تناول القضية، وردَّد متأملا:

- كل الأخطاء قابلة للغفران..

صمت برهة، ثم رفع عينيه ليواجه عينيها في ثبات ويسأل:

- عند الله أم عند الناس؟
- لم أفهم قصدك حضرة الرائد!
- الأخطاء كلها قابلة للغفران عند الله أم عند الناس؟

قالت في إصرار:

- زوجي لم يكن إلهًا يا حضرة الرائد.. لم يكن يقرّر نيابة عن الله.. الله تعالى هو الذي يقرّر ذلك في كتابه العزيز **(إنَّ اللهَ يغفرُ الذنوبَ جميعًا)**.. وما دام الخطأ يُغتفر عند رب الناس سبحانه، فأولى بعباده أن يتغافروا بينهم..
- هل هذا هو رأيكِ أيضًا سيدة إيمان؟
- على المستوى العقلي نعم أتفق معه.. أمّا على المستوى العملي،كنت أقل تسامحًا مع الأخطاء منه..
- أحترم صراحتك سيدة إيمان..

- شكرًا لك

عاد للنقر بسن القلم مجددا، فاجأته بسؤال:

- ما الذي يُقلق فكرك تجاه القضية حضرة المفتش؟
- يُقلق فكري طبيعة شخصية الراحل، وطبيعة شخصية المحيطين به.. كمّ التميز الموجود في هذه العائلة.. سامحيني إن استعرت اسم المسرحية(إنها حقا عائلة محترمة)..

سعل وقال بعد ضحكة اعتذار:

- بالطبع لا يوجد في العائلة المحترمة الراقصة أوسا.. مثل هذه العائلة يجب ألا تحدث فيها جريمة قتل.. نحن أمام قضية خطأ!

عقّبت إيمان وعيناها تلمعان بشدة:

- فرَضية الانتحار مستحيلة تمامًا في حالتنا هذه يا حضرة الرائد..

نظر إليها عماد نظرة طويلة فاحصة،للمرةّ الثانية تُفرض عليه فرضية الانتحار فرضًا ولو على سبيل النفي، رغم أنه لم يذكر هذه الكلمة بعد.. فهل يريدون أن يوحوا له بتلك الفكرة لهدف ما؟ لحماية القاتل المحتمل مثلا؟!!.. من هو ذلك الشخص الذي يمكن للجدّة حمايته على حساب تضييع حق ابنها؟!.. هل تكون هذه فكرة أوحت بها إليها السيدة إيمان وليس توارد خواطر بين الأم وزوجة الابن؟ لقد انفردت إيمان فترة من الوقت بالحاجة فوقية أثناء استجواب حسام.. أم أنّ معهما شخصًا آخر يوحي لهما بتلك الفكرة؟.. استبعد عماد أن يقوم أحد بالتأثير على عقل السيدة إيمان.. إنّها ليست من النوع الذي يتأثّر بالإيحاء.. فهل تستفيد هي بأي شكل من توجيه مسار القضية إلى اتجاه اعتبارها انتحارًا؟.. قطع شروده صوت السيدة إيمان توجه سؤالا إليه:

- هل أنت مهتم حقًا كل الاهتمام بسبر أغوار هذه القضية حضرة الرائد؟!

أفاق الرائد من شروده على دهشة شديدة،أجاب بشيء من كرامة:

- بالطبع سيدتي.. أنا لا أُخفق أبدًا في قضية أتولى التحقيق فيها..

نظرت إليه إيمان في تحدٍ نظرة طويلة وكرَّرت السؤال بصيغة أخرى:

- نعم أفهم يا حضرة الرائد قد تكون أنت شخصيًا مهتمًا.. يمكنني رؤية ذلك.. لكنني أقصد هل الشرطة مهتمون بجلاء غوامض القضية؟!
- بالطبع..
- وهل سيتركونك تمضي بها حتى النهاية؟ ألن يطلبون منك غلق التحقيق وتحويل الأمر إلى النيابة العامة مع توجيهها لحفظ التحقيق وتقييدها ضد مجهول؟!

سدَّد إليها نظرة حذرة، وسألها بتغابي:

- ولمَ يفعلوا كل ذلك؟

أجابت في غموض:

- ألم أقل لك أنّ حضرتك لم تقرأ شخصية محمد جيدًا قبل أن تحقق في قضية مقتله..

قال متفكِّرا:

- أتقصدين أن الشرطة لن يهتموا به باعتباره معارضًا سياسيًا؟ أريد أن أوضّح لك أن هذه صورة ذهنية ليست صحيحة عن الشرطة، خاصة في مجال البحث الجنائي.

قالت في عناد:

- أنا الذي أريد أن أصحِّح لحضرتك الصورة عن محمد رحمه الله.. محمد الباجوري لم يكن معارضًا سياسيًا.. كان أكبر من ذلك بكثير.. لقد كان – إن أردت الدقّة–مصلحًا اجتماعيًا!
- لا فرق.. كل من يطرح فكرًا أو ثقافة مخالفة لما تطرحه السُلطة نعتبره معارضًا سياسيًا...
- هذا تصنيف خاطئ يا حضرة الرائد..

نحَّى تلك الفرضية بإشارة من كفّه قال:

- بغض النظر عن مدى صحة تصنيفات السُلطة.. فإن الراحل لم يكن مشهورًا بشكل خاص يثير حفيظة السُلطة ضده.. أليس كذلك؟!

قالت في عفوية:

- ومَنْ مِن المصلحين الاجتماعيين يحظى بالشهرة سيدي؟ في كل دول العالم قف واسأل شابًا أو فتاة أو طفلا عن اسم شخصيتين أحدهما (ميسي) والآخر (زويل).. فكيف ستكون النتيجة؟.. ما نسبة معرفة الناس للعالم "زويل" مقابل معرفتهم بـ "ميسي"؟!
- هل تريدين توجيه نظري سيدتي أن هذه ربما تكون قضية تصفية سياسية أو حتى تصفية فكرية؟!
- لم أقل شيئًا من هذا حضرة الرائد.. لم أتهم السُلطة أو منافسين لزوجي بالتورّط في القضية.. إنما أتهم السُلطة بإمكانية التغاضي عن كشف هُوية القاتل.. لقد أفادهم تنحية محمد عن طريقهم.. لا شك في ذلك..

للمرة الثانية في هذا الحوار يشعر عماد بمدى خطورة تلك المرأة.. إنّها تحاول الإيحاء له بأن القضية إمّا أن تكون انتحارًا أو تكون ذات أبعاد سياسية.. إنها تحاول أن تنفي كونها قضية داخلية! تفعل ذلك لحساب من؟ لحماية من؟ من هو الشخص الذي تشك فيه السيدة إيمان وتحاول فرض حمايتها عليه؟ أم أنّها تعرف الحقيقة وليس مجرّد شك؟!.. قال لنفسه:"لا.. لا قيمة للنفي الذي تضعه دائمًا قبل الفكرة التي تريد أن تحشو بها رأسي.. إنها حيلة قديمة وإن كانت ناجحة.. ناجحة لكن مع غير الرائد عماد.." باغتها بسؤال:

- لو افترضنا أنّ هذه الجريمة جريمة داخلية.. تمّ التخطيط لها في دائرة معارف الراحل، بالتأكيد إن سيدة في مثل حكمتك وخبرتك وعقلك لها رؤية وحُكمًا صائبًا على الأمور، ستحصر شكّها في شخص أو عدّة أشخاص.. فيمن تشُكّين تحديدًا؟

قالت في قوة وهي تتنفَّس بصوت مسموع:

- ثق يا حضرة الرائد أنّ هذه القضية لا يمكن أن تكون قضية داخلية أبدًا.. كل من كان يعرف محمدًا معرفة جيدة بالاحتكاك المباشر به كان يحبه.. يحبه بشدة......

قاطعها بإصرار:

- حتى ولو اختلف معه؟!

قالت في يقين:

- حتى ولو اختلف معه.

قال عماد في محاولة للتشكيك في يقينها:

- إذا لم تكن قضية داخلية وليست انتحارًا، ولا هي قضية سياسية.. فماذا يمكن أن تكون؟!

مطَّت شفتيها وحرَّكت رأسها معبِّرة عن الحيرة وعدم المعرفة.. سألها بإصرار:

- أريد رأيك الشخصي ولو بصفة غير رسمية.. فهو يهمني

أجابت بعناد:

- أنا لا رأي لي

ابتسم عماد وهو يكبت غيظه، وأشار لها بكفِّه وهو يقول:

- تشرَّفت بلقائك سيدتي.. استمتعت جدًا بالمبارزة الفكرية التي تجيدينها.. وأعترف أنكِ فائزة بنتيجة الجولة.. حتى الآن..

شدَّد على العبارة الأخيرة، وأضاف:

- لكنني لا أستسلم للهزيمة.. ستكون جولات سيدتي تذكّري هذا جيدًا.. تستطيعين الانصراف الآن.. شكرًا لك..

قرأ تغيرًا طفيفا لا يكاد يُلحظ طرأ على قسمات وجهها.. تردَّدت في قول شيء.. طال صمتها لكنّها لم تتصرف مباشرة.. كرَّر لها عبارته متجاهلا تردّدها:

- شكرًا لك..

حسمتْ أمرها هذه المرّة، نهضت كما أقبلت وانصرفت في نفس الكبرياء والأنفة، وهو يرمقها بذات الإعجاب، ويستحوذ عليه إحساسه المتزايد بمدى خطورتها!!

سأل نفسه متأملا: هل تَعجَّلَها؟ ماذا أرادت أن تُسرّ به إليه؟!

نظر إلى الرقيب نادر، تمنّى لو أنّه في مزاج يسمح له أن يتبادل معه بعض الأفكار.. فقد يمدّه عن طريق أفكاره العاطفية الساذجة بمفاتيح إضافية، لمَ يُرد هؤلاء القوم توجيهه إليها.. كان الرقيب نادر يحاول التغافل عن نظرات رئيسه بإظهار عمله في مراجعة ما كتب من محاضر.. شعر عماد بالحِنق عليه وردَّد بينه وبين نفسه:"هذا جزاء التبسط والتشاركية مع المرؤوسين!!".. أخرج سيجارة وأشعلها من

قداحته الأنيقة.. لم يفكِّر أن يعرض على نادر مشاركته التدخين –على غير عادته السخية–تمنَّى لو كان بمكتبه الآن.. لطلب فنجانًا من القهوة بالبن المحوّج الخاص.. قال بصوت مسموع هذه المرة دون أن يلتفت بنظره إلى نادر:

- طقوس.. مجرّد طقوس.. فلكل مهنة طقوسها.. ولو أنّ الطقوس نفسها لا تغيّر من الأمر شيئًا.. لكنّها تظل مبعث الإلهام..

أراد الرقيب نادر أن يكسر رهبة القطيعة النفسية المؤقَّتة مع رئيسه، لم يجد ما يعلِّق به، فآثر الصمت!!

(٤)

لم يخرج الرائد عماد من استجواب السيدة نادية زوجة حسن شقيق المتوفى، بجديد يُذكر.. كانت فكرته التي كوَّنها عنها أنها ليست من أفراد العائلة المتميّزين، كانت امرأة عادية في أواسط العُمر لا تلفت النظر بشكل خاص، علم عماد أنها تعمل مدرسة علوم بإحدى مدارس المدينة الإعدادية.. قالت موضحة:

- كانت إيمان كثيرة النزاع مع المرحوم بينما كان هو حريصًا على إرضائها!

سألها مستوضحًا:

- وهل يشكِّل هذا فارقًا بالنسبة إليك؟!

فتحت عينيها على اتساعهما دهشة وأجابت بثقة:

- بل يمثّل كل الفرق، فلو كانت وفاة المرحوم طبيعية – وهو ما زلت أعتقده حتى الآن–لقلت مرتاحة الضمير: إنها تسببت في موته قهرًا وكمدًا
- ألهذه الدرجة؟!
- أنت لا تعرف يا فندم كيف كان يتفانى في حُبها ويسعى في إرضائها! وكيف كانت تقابل كل ذلك ببرود، بل وأحيانًا بنُكران وجحود!
- لفت انتباهي في حديثك شيئًا بخصوص أسباب وفاة الراحل.. فكيف تحتفظين إلى الآن باقتناعك أنّ الوفاة طبيعية رغم تقرير الطبيب الشرعي؟!

أصدرت صوتًا ينم عن الاحتقار، وقالت بامتعاض:

- ألا يخطئ الطبيب؟!
- ربما يخطئ في بعض الحالات.. لكن ليست هذه الحالة، فهذه حالة شديدة الوضوح..

ابتسمت في إشفاق، حدّثت نفسها قبل أن توجه حديثها إليه:"لو كنا في مجتمع إنجليزي لأجبتك كما يجيبون في الروايات (هُراء)".. وجَّهت إليه سؤالا بدا عفويًا:

- ألم تكن حالات قتل خالد سعيد.. جيكا.. محمد الجندي.. تزوير خط الطالبة مريم في امتحانات الثانوية العامة.. وغيرها، وغيرها.. حالات شديدة الوضوح؟!

زفر الرائد عماد بقوة وضيق، نهض من مقعده وأخذ يدور في الغرفة وهو ينظر بين خطوة وأخرى إلى السقف.. نفث دخان سيجارته بعصبية شديدة، ثم أطفأها بحنق في منفضة السجائر على المكتب، كان يخنق عقب السيجارة كما تمنى لو يخنق هذه المرأة الجالسة أمامه في وداعة.. أراد أن يصرخ في وجهها:

- حتى أنتِ تتحدّثين عن القضايا السياسية الشائكة؟!..

لجم انفعاله، قال محاولا إبداء التودد واللطف:

- نعم.. أتفق معك تمامًا أنّ الطب الشرعي يخطئ، أو حتى قد يتعمَّد الخطأ لكنّه يفعل هذا في قضايا لها طبيعة خاصة شديدة الحساسية ولحماية قاتلين لهم حيثية ما.. أمّا أن يحوّل الطب الشرعي وفاة طبيعية إلى شبهة قتل، فهذا لا يمكن فهمه أو افتراضه مجرد افتراض!!

قالت في يقين:

- عندما يضرب الفساد بجذوره في أعماق أي مؤسسة.. يمكنك افتراض كل شيء يا سيادة المفتش.. كيف تطلب مني أن أثق في تقرير أو شهادة أناس بينهم مزوّرون أو جهلاء تم تمريرهم إلى المؤسسة بالوساطة والمحسوبية أو الرشوة ليقوموا بعمل غير مؤهّلين من حيث المبدأ للقيام به؟!

حاول الرائد عماد إعادتها إلى قضيته الأصلية قال بهدوء:

- لكننا هنا أمام قضية عادية، وسبب واضح وبسيط للوفاة.. سبب يعتمد على التحليل الكيميائي البسيط

نفثت بقوة وقالت:

- وهذا يجعلني متأكّدة أكثر مما أقول.. أنا يا سيادة المفتش حاصلة على بكالوريوس علوم تخصّص كيمياء.. وأعرف ما يمكن أن يرتكبه الحمقى في حق الكيمياء، وما يُصدرونه من تقارير باطلة باسم الكيمياء!!

أغمض الرائد عماد عينيه وفتحهما.. نظر إلى رأس نادية، شعر أن هناك خطأ ما، فرك عينيه بكفّه، حدَّث نفسه ساهما:"ما الخطأ في هذه المرأة؟، لو كانت تضع خمارًا فوق رأسها وكتفيها لقلت عنها أنها إخوانية متعصِّبة!! ولو لم تكن تضع فوق رأسها هذا الغطاء البسيط لقلت عنها أنّها شيوعية متطرفة! المصيبة أنها لا يمكن أن تكون هذا أو ذاك فمن تكون؟.. ومن أين ظهرت لي في تلك القضية العجيبة؟!

لم تحتمل نادية هذه الفترة الطويلة من الصمت الخانق، بطبيعتها كانت تحب الثرثرة، قالت بلا رابط:

- كنت أود يا سيدي أن تكون أسباب وفاة المرحوم أسباب جنائية، وأن تتوجّه أصابع الاتهام إلى تلك المرأة الشريرة إيمان، لقد قتلته بالفعل وهو على قيد الحياة.. خنقت أحاسيسه ومشاعره، وأقلقت نفسه، وأضاعت عليه فُرصًا للتفرّغ لعبقريته البحثية والفكرية بمشاكلها ونزاعاتها الفارغة.. وددت لو كانت بالفعل جريمة قتل.. كنت عندها سأحاول إثبات الجريمة عليها بكل وسيلة.. لكن ثق في كلمتي سيدي المفتش.. ليست هناك أسباب جنائية للوفاة.. لقد كان مجرد خطأ وارد الحدوث في تقرير الطب الشرعي..

حاول عماد جاهدًا ألا يُستدرج من جديد إلى فخ الجدال حول الفساد الذي يضرب بجذوره في أعماق مؤسسات المجتمع، وأن يظفر من محدّثته (المخبولة) ولو بفكرة ما، سأل بعفوية:

- هل يمكن أن يتورّط الراحل محمد في تعاطي المخدّرات بسبب تلك الضغوط التي فرضتها عليه زوجته؟

للمرّة الثانية فتحت نادية عينيها على اتساعهما، واستولى عليها العجب حتى شهقت من شدّته، قالت في استنكار بالغ:

- عذرك أنّك لم تكن تعرف المرحوم يا سيدي، لم تكن تعرفه ولو ذرة معرفة واحدة.. من كان يتحمَّل تلك المرأة الشريرة بكل هذا القدر من العفو والتسامح، بل والحُب، فإنه لا يكون إلا جبلا.. جبل لا يهزه الريح..

صمتت برهة متأمِّلة ثم أضافت مغمضة العينين كأنها تستلهم جملة من عالم الغيب، وهمست:

- ولا الزلازل..

شعر عماد بمدى قُدرة هذه المرأة البسيطة التي لم يُقدِّرها حق قدرها على صنع جو ميلودرامي على أحسن ما يكون.. لم يكن وقته يتَّسع ليستمتع بمزيد من الميلودرامية.. بسط كفّه وأشار إلى الباب وهو يقول متصنّعًا الابتسام:

- سعدت بلقائك سيدة نادية.. شكرًا لإلقائك بعض الإضاءات القيّمة لجوانب هذه القضية.. تستطيعين الانصراف..

قالت بقوة وهي تنهض:

- ثق في رأيي سيادة المفتش.. لا أسباب جنائية وراء وفاة المرحوم.. خذ بنصيحتي واطلب من مصلحة الطب الشرعي إعادة إجراءات التشريح والتحليل!!

- شكرًا لكِ سيدتي.. سأضع نصيحتك الغالية نُصب عيني.. ثقي في ذلك.. شكرًا لك.. أغلقي الباب خلفك لو تكرَّمتِ، ولا ترسلي حسن حتى أستدعيه أنا بنفسي..

التفت عماد إلى نادر وقرَّر أن ينهي القطيعة النفسية بينهما، حكّ ذقنه لحظة ثم سأله وهو يبتسم:

- استمتعت بالعرض أيها الرقيب نادر أليس كذلك؟!.. نعم يا رجل أعرف أنها من نوع النساء الذي يستهويك!..

صمت وهو يتفرَّس في وجه الرقيب الذي شعر بالحرج الشديد، صعدت الدماء إلى رأسه حارًا، ولم يحر جوابًا.. استحثّه عماد قائلا:

- هيا يا نادر لا تدّعي الأدب والخجل.. حدّثِني بصراحة عن رأيك في تلك المرأة نادية؟

بلّل نادر شفته السفلى بلسانه، وابتسم في خبث، وقال:

- أقطع ذراعي يا فندم إنْ لم تكن نادية هذه غارقة إلى أذنيها في عشق أخ زوجها الراحل!..

قهقه عماد بصوت مجلجل وصاح وهو ما زال يضحك:

- يخرب عقلك يا نادر.. أنا أيضًا قلت أنك ستفهم الأمر هكذا..

جارى الرقيب نادر رئيسه في الضحك بصوت مرتفع، وفجأة نهض الرائد عماد من على مقعده وضرب سطح المكتب أمامه بقبضته بصرامة صائحًا:

- انتبه يا رقيب نادر.. احترم المكان الذي أنت فيه.. احترم أنّنا في غرفة مكتب القتيل الذي لم يفارق عالمنا إلا أمس فقط!!.. احترم وجودي على الأقل أيها الرقيب!"

نهض الرقيب نادر واقفًا بسرعة البرق كمن لدغته حيّة، ضرب الأرض بقدمه، ورفع كفّه إلى جوار رأسه بالتحية مؤديًا التمام:

- تمام يا فندم.

نظر إليه الرائد بود، وقال مبتسمًا:

- بهدوء يا نادر.. بهدوء.. اضحك بهدوء.. أدِّ التحية بهدوء.. نحن في بيت محترم.. بيت محترم جدًا..

أشار إليه وهو يعود إلى مقعده وقال:

- رغم أنّ عقلك يا نادر لن يستوعب من أداء الأستاذة نادية إلا ما أدليت به من رأي.. إلا أنّني.....

خفض صوته ونظر نظرة جانبية واستطرد:

- من باب التشاركية..

ثم عاد إلى صوته الطبيعي، أضاف:

- أُحب أن أوضّح لك أنّ ما عبرتْ به تلك المرأة عن مشاعرها بهذا الوضوح وتلك القوة، ما هو إلا نوع من الانبهار بشخصية القتيل.. أؤكّد لك يا نادر أن كل من في هذا المنزل منبهرين بشخصية الراحل!! ألم تلحظ كم مرّة أجد من يوجّه لي ملحوظة....

غيّر نبرة صوته محاولا تقليد النساء قال:

- حضرتك لم تكن تعرف المرحوم الله يرحمه جيدًا يا سعادة الرائد!

في تلك الأثناء سمعا صوت طَرقات على الباب، سأل في امتعاض:

- ألم أُنبّه الأخت نادية أنّني لا أريد دخول أحد الآن؟.. ألا أستطيع الراحة عدّة دقائق في بيت المجانين هذا؟!..

انطلق الرقيب نادر بهمّة إلى الباب ليصرف من يقف أمامه بصرامة، فتح الباب فوجد الفتى حسام يحمل بين يديه صينية عليها فنجانين من القهوة.. ويقف بالباب قبالته متطلّعًا.. أفسح له مجال الدخول.. وضع حسام الصينية فوق المكتب وهمس في أدب:

- قهوة مضبوطة يا حضرة الرائد.. إن أردت تغييرها بنوع آخر فـ........

قاطعه الرائد شاكرًا:

- القهوة جاءت في وقتها تمامًا يا أخ حسام .. شكرًا لك.. أنا أشربها مضبوط..

أشار إلى الرقيب نادر وأضاف مبتسما:

- الرقيب نادر لا يشرب القهوة.. يشرب شايًا مغليًا مرات عديدة.. سأسمح له بتناول القهوة معي.. لأجل خاطرك أنت فقط يا أخ حسام والله.. وباسم التشاركية..

انطفأ وجه الرقيب نادر، لكنّه أخفى ضيقه كما اعتاد ببراعة وبابتسامة من أعجبته نكتة رئيسه الرائعة.. انسحب حسام بهدوء مغلقًا الباب خلفه.. وأشار عماد إلى نادر قائلا:

- تعال.. اجلس هنا أمامي واستمتع بتناول قهوتك معي..
- العفو يا فندم..
- تعال يا رجل.. نحن بعد ثورة يناير في زمن التشاركية.. اجلس يا نادر اجلس..

قدَّم له سيجارة.. اتكأ برأسه للخلف وأغمض عينيه، وشرد في تفكير طويل متجاهلا الرقيب الجالس أمامه تمامًا.. استمر على هذه الحال عدِّة دقائق ثم نهض واقفًا فجأة وهو يصيح:

- أستاذ حسن.. يا حسن باشا

التفت إلى الرقيب نادر الذي ظل جالسا قبالة مقعده في بلاهة وصرخ فيه:

- مكانك أيها الرقيب.. لعبة التشاركية انتهت..

دخل حسن متجهّمًا، سأله عماد قبل أن يجلس:

- هل هناك أحد آخر من الأسرة أو خادم مثلا أو شيء من هذا القبيل كان محتكًا بالفقيد؟..
- توجد خادمة كانت تأتي مرّتين في الأسبوع للقيام ببعض أعمال النظافة والترتيب.. هي الآن موجودة مع النساء في الخارج.. جاءت لأداء واجب العزاء..

سأله عماد في صرامة:

- تجلس مع النساء؟ ألم أطلب منك عزل من تم سؤاله عن باقي أهل المنزل؟!
- هذا ما قمت به بالفعل.. الفتاة جلست مع من لم يتم استجوابهن ومن ثَمّ دخلت المطبخ لإعداد القهوة..
- آه.. فهمت.. شكرًا لك يا سيد حسن.. أود لو أنتهي من سماع رأي الخادمة أولا قبل أن أتناقش معك حول بعض الأمور..

تحرَّك حسن بظهره متراجعًا نحو الباب وهو يتمتم:

- حاضر يا فندم.

دخلت الخادمة غرفة المكتب مطأطأة الرأس تحاول إخفاء شعور الإثارة والفضول الذي تشعر به بشدة تجاه القضية.. هتفت:

- حضرتك طلبتني يا باشا؟

قوّمها عماد بنظرة فاحصة، سجَّل الرقيب بياناتها، اسمها حنان.. تقيم مع والدتها العجوز، كانت فتاة جميلة في غير ابتذال في منتصف العشرينات من عمرها، تخدم في أكثر من بيت لتحصيل لُقمة العيش.. أبدت لهفتها على سماع الأسئلة.. لم تكن تملك إجابات.. لقد كان حرصها على دخول غرفة الأسرار لا لتُفضي بما لديها، وإنّما لتسمع ما تستطيع أن تلتقطه أذناها من أخبار، أو أسئلة توحي لها بأخبار عن هذه القضية!!.. كان استجوابه لها مقتصرًا على النقاط الأساسية، لم يحصل منها على جديد.. لقد أكَّدت بطريقتها الخاصة ما سبق أن أكّده الجميع من انبهارهم

بشخصية الفقيد.. لم يكن به من وجهة نظرها ما يعيبه، ولم تلحظ عليه أي تغيّر في سلوكه أو أحواله في الفترة الأخيرة.. تحفَّظت عن إبداء رأيها عن علاقة الراحل بزوجته السيدة إيمان، غير أنّها لم تخفِ إعجابها واحترامها الشديد لشخصيتها وأسلوبها العملي في التعامل.. كانت منبهرة بها كذلك.. ولم يبدُ عليها أنّها يمكن أن تفيد التحقيق بأي صورة من الصور.. صرفها الرائد عماد بعدما طلب منها أن ترسل إليه السيد حسن..

ابتدره عماد قائلا:

- كنت أود يا سيد حسن أن أُطلعك على نقاط محدَّدة تفيد في تحديد الجاني أو حصر المشتبه فيهم في قضية مقتل شقيقك.. لكن يؤسفني القول أنّ ما حصلت عليه من نتائج كان مخيبًا للآمال، فهو قليل جدًا، في الحقيقة لم أحصل على شيء ذي بال.. أعلم أننا ما زلنا في بداية التحقيق.. ما زال أمامنا أصدقاء الفقيد، زملاؤه في العمل..........

سكت هُنيهة ثمّ نظر إلى حسن نظرة معبِّرة، وأضاف:

- كل ما آمل فيه الآن سيد حسن أن تلقي لي الضوء على بعض الحقائق المتفرِّقة.
- تفضل سيدي الرائد..
- هل تعتبره تطفلا مني على الخصوصيات لو سألتك عن علاقة الراحل بزوجته السيدة إيمان؟

هزّ حسن رأسه بتفهم، أجاب:

- أعلم أننا بصدد جريمة جنائية، ولذلك لا أظن أنّ هناك معنى للحفاظ على الأسرار في مقابل الوصول إلى الجاني..

صمت برهة يستجمع شتات فكره، ثم استطرد:

- لقد تزوجا عن قصة حب رائعة.. ضحَّت خلالها السيدة إيمان أكثر مما ضحَّى محمد.. وليس معنى هذا أنّه لم يكن يبادلها نفس المشاعر، أو أنّه بخل عنها بشيء.. لكنّ ظروفهما هي التي فرضت عليهما هذا الوضع..

الذي لا يعرفهما عن قرب سيادة المفتش يظن علاقتهما متأرجحة.. لكن من يقترب منهما يعرف مدى متانة ورسوخ تلك العلاقة..

- أفهم من ذلك أن الفقيد كان سعيدًا مع زوجته رغم تلك المشاحنات المتكررة؟!

أجاب بحسم:

- جدًا.. كان سعيدًا جدًا معها سيدي المفتش

نقر عماد بسن القلم على أوراق أمامه، ثم سأل مفكِّرا:

- نقطة أخرى سيد حسن.. هل كنت قريب الصلة بشقيقك؟ بمعنى مدى اطّلاعك على أسراره.. معرفتك بمستجدات أحواله؟

قال حسن في صدق:

- لا أزعم أنّني ومحمد كنّا أصدقاء على نحو خاص أو استثنائي.. لكن في المجمل يمكنني القول إنّني كنت قريبًا منه بما يكفي أن أعرف كل جديد في حياته.. نعم لم أكن لأغفل عن حقائق أساسية تمس حياته الشخصية أو العملية، أو في أسرته مع أبنائه..
- هذا أمر جيد يا أستاذ حسن.. وهو يشجّعني لأمضي معك إلى ثلاثة أسئلة نهائية وحاسمة بالنسبة لمسار التحقيق..

دارت أسئلة الرائد عماد حول موضوع مدى إمكانية لجوء شقيقه إلى تعاطي أي نوع من المخدّرات، ولو على سبيل العلاج الطبي من مرض ما، ومدى استعداد محمد للإصابة بالاكتئاب النفسي الحاد الذي يتطوّر إلى ميول انتحارية.. وهل تعرّض في الآونة الأخيرة لضغوط متزايدة قد تفضي به إلى قرارات لها خطورتها.. كانت إجابة حسن قاطعة تجاه الاحتمالات الثلاثة، كان نفيه أوضح من أن يعتريه أي شك أو تردّد.. حمد له الرائد أنّه لم يكرر على مسامعه العبارة المأثورة التي يمكن أن تتخذها عائلة الباجوري شعارًا، وقد تكرَّرت على ألسنة جميع نسوة هذا البيت، وهي عبارة"أنت لم تكن تعرف محمد جيدًا سيدي المفتش"!

أخذ الرائد عماد ينظر إلى الرقيب نادر نظرات ذات معنى، ليجمع ملفّاته.. نهض وهو يصافح حسن وهو يقول:

- أزعجناكم بما فيه الكفاية.. سنوافيكم بما يستجد في أمر القضية.. اشكر لي نساء المنزل الرائعات.. أبلغهن والعزيز حسام تعازيّ ومشاطرتي القلبية للجميع.
- شكر الله لك سيادة الرائد..

مدَّ كفّه مصافحًا.. ربّت على كتف الرقيب نادر قائلا:

- أنت أيضًا شرّفتنا يا حضرة الرقيب.

أغلق الباب خلفهما وهو يطلق زفرة ارتياح لانتهاء هذا اليوم العصيب!

(٥)

اختلى الرائد عماد بنفسه ليرَّتب أفكاره حول القضية.. كان غارقًا في مقعد فوتيه ضمن طقم "الأنتريه" الخاص به في "صالة" الاستقبال بشقته الفاخرة في إحدى ضواحي المدينة.. أمسك "الريموت"، وأخذ يقلّب القنوات أمامه على الشاشة في غير انتباه خاص.. يريد أن "يَفصل" كما يُعبِّر دائمًا عن حالة الاسترخاء والخروج من التفكير المتواصل في العمل.. ليعود أكثر تركيزًا ونشاطًا وقُدرة على التفكير.. لم يجد شيئًا يلفت انتباهه عن التفكير في القضية.. قنوات "الكوميديا" كانت تتسابق –من وجهة نظره–في تصدير الملل إلى المُشاهد، فكلّها في توقيت واحد تعرض إصدارات مختلفة من برامج المقالب "العبيطة" على غرار "حيلهم بينهم"، ومقالب "رامز جلال" الشريرة، والساحر الذي أخفى ابنة أسرة من المشاهدين داخل صندوقه المسحور، ثم صوّر للجمهور حدوث عطل، وأنّ الطفلة على وشك الاختناق.. وانطلاق السباب والتهديد من أسرة الطفلة على أعلى مستوى من "البذاءة".. حدّث عماد نفسه بتقزُّز وهو يضغط أزرار "الريموت" بسرعة وعصبية:"ما هذا القرف الذي يتسابقون في تقديمه لنا؟!.. لا أرى ضحكًا ولا كوميديا في هذا الرعب الأسود!"

انتقل إلى مجموعة قنوات التوك شو التي كان يطلق عليها قنوات برامج "اللوك لوك لوك".. لم يشعر بوجود جديد، كلّها تنويعات لإصدار واحد ظهر للوجود عشية ٢٥ يناير ٢٠١١ إلى الآن!!.. تساءل في مرارة: ألا توجد مسرحية قديمة جميلة للفنان المبدع عادل خيري؟ أو فيلم أبيض وأسود لنجيب الريحاني أو إسماعيل يسين؟!.. جرَّب ينتقل إلى مجموعة قنوات الشرعية، حدَّث نفسه قائلا:"الوهم اللذيذ بطعم التمرد".. ابتسم رغم أنفه وهو يتساءل عن نوع المخدّرات التي يتعاطاها هؤلاء وأولئك!!.. قال وهو يحرِّك أنفه منشِّطا حاسة الشم لديه في تلذذ:"إنها فعلا أصناف ممتازة.. عالية جدًا لا شك في ذلك!!".. ذكَّرته الأصناف الممتازة من المخدّرات بجرعة المخدّر الزائدة التي توفي على إثرها محمد الباجوري.. جرَّب مجددا التنقل بين قنوات "التوك شو".. شعر بالتقزّز من جديد هتف:"وأنا أسأل هل أصيب

الباجوري باكتئاب!! أنا شخصيًا أصبت باكتئاب حاد.. أَصبتم مصر كلها باكتئاب وميول انتحارية الله يحرقكم".. قالها وهو يكبس زر الإغلاق في "الريموت" ويقذف به بعيدًا.. أشعل سيجارة وأخذ ينفث فيها بغلّ، ثم أطفأها بقوة في منفضة السجائر أمامه وتساءل ساخرًا في نفسه:"ما هذا الذي أفعله بنفسي؟ أُشعل سيجارة من سيجارة كالمدمنين!".. رشف رشفات متتابعة من فنجان قهوته، فأبدى استمتاعه وصاح:"نعم هو هكذا طعم البُن المحوّج المضبوط.. الله عليك يا ولد يا عماد".. فرك كفّيه في نشاط وأمسك بالقلم، وبعض قصاصات من الورق وبدأ يرتِّب أفكاره بتدوين ملاحظات قصيرة على هيئة عناوين عامة على قصاصات الورق، بحيث تحمل كل قصاصة عنوانًا كبيرًا واضحًا على هيئة سؤال.. (من يستفيد من مقتل الباجوري؟).. (من كان عدوًا لدودًا للباجوري لدرجة التفكير في قتله؟).. (ما هي احتمالات انتحار الرجل؟)..(هل أدمن القتيل المخدرات في آخر أيامه دون علم أحد؟).. (هل كان مقتل الباجوري حادثًا عرضيًا؟ تم خلاله تصفية الرجل الخطأ؟).. (هل قُتل الباجوري لاطّلاعه على سر يجب عدم اطّلاعه عليه ويمس حياة أشخاص آخرين؟).. **(من كان محمد الباجوري؟)**.. توقّف عماد أمام القُصاصة الأخيرة طويلا وظل ينقر حول السؤال بسن القلم، حتى غلّف السؤال بدائرة من النقاط الصغيرة المقطَّعة.. سأل نفسه باهتمام:"من حقًا كان محمد الباجوري؟!".. أخذ يكتب إجابات فرعية بخط أصغر أسفل السؤال الكبير في صورة نقاط:

#مصلح اجتماعي

#رجل مثالي

#باحث أكاديمي ومفكّر (هاو)

#قدوة لأبنائه

#ممثّل لفكرة الديمقراطية التشاركية في أسرته وعمله ونشاطه!

#زوج محبوب ومحب يمتلئ بمشاعر التسامح والحنان والرفق

#رجل يؤمن بشدة بضرورة مراجعة أخطائه ومحاسبة الذات

#مدمن مواقع تواصل اجتماعي يكتب تعليقات هنا وهناك بديل عن حل الكلمات المتقاطعة في الزمن الغابر!

#كاتب عشرات من المقالات والأبحاث التي لا يقرأها غير قلة قليلة من القرَّاء، ولا يؤمن بها سوى أقل القليل.

ثم كتب ما يعتبره ملخصًا لكل النقاط السابقة: (مجرّد رجل بسيط عادي قد يكون متميزًا وقد يكون رائعًا، لكنّه مغمور لا يعرفه إلا المحتكّون به في دائرة محدودة شديدة الضيق!!)

من يريد التخلص من رجل مغمور مثل هذا؟! وفي المقابل من أيضًا يتمسّك بوجوده على قيد الحياة؟

#أسرته ومحبوه وأصدقاؤه

كتب ساهمًا سؤالا، وتركه بلا إجابة: هل حقا أسرة محمد الباجوري ومرؤوسوه في الأنشطة البسيطة المختلفة كانوا يريدونه بشدّة على قيد الحياة؟ هل حقا يُكنّون له كل هذا القدر من الحب الذي يدّعونه؟!

انتقل إلى قُصاصة أخرى: (من يستفيد من موت محمد الباجوري؟).. ثم كتب: لا أحد.. ليس لدى محمد مال يستفيد منه أحد ولا مدّخرات يرثها أحد.. ولا مطمع فيه لأي شخص كان!!.. هتف:"الباجوري لم يورِّث مالا ولا عقارًا!! فماذا ترك لأسرته وأهله؟".. أخذ يقلّب السؤال في رأسه.. كان يريد إجابات حاسمة لأسئلة بسيطة حقًا.. أسئلة ليس لها علاقة مباشرة بالقضية أو أسباب الوفاة.. لكنّ الإجابة على تلك الأسئلة يجعلها تختفي من على سطح تفكيره ليتفرَّغ للأسئلة الأكثر جوهرية وعلاقة بالجريمة!

"ماذا ترك الباجوري لابنته وابنه وزوجته؟".. ترك رصيدًا من القيم والمبادئ؟!.. القيم والمبادئ مبذولة بالمجان في آلاف الكتب والمقالات وملايين الخُطب والمحاضرات.. الأفكار والمبادئ لا ملكية لها فهي مُشاع على شبكة الانترنت وفي برامج "التوك شو".. وغيرها!.. هل للقيم والأخلاق والمبادئ والأفكار في حياتنا قيمة؟.. في المجمل، في المحصلّة لقد ورّث محمد الباجوري مجموعة من المكابح والحواجز التي تعيق حركة الفرد في المجتمع بحرية مطلقة.. ورّث لهم مجموعة من إشارات المرور (كلّها حمراء)!!.. الإشارات الحمراء ستمنعهم حقًا من ارتكاب العشرات من حوادث السير.. لكنها ستمنعهم كذلك من الوصول إلى نهاية السباق.. لا يصل إلى نهاية

السباق إلا المجرَّدون من الإشارات الحمراء والمكابح.. عديمي القيم والأخلاق والمبادئ!!.. تذكَّر بيتا قديمًا من الشعر ابتسم لنفسه وهو يتمتم به في استمتاع:"فاز بالملذات كل مغامر...... ومات بالحسرة من كان يحذر!!".. إلى هنا شعر عماد بالحنق من نفسه.. شعر بتقزّز مضاعف من الواقع، تمتم لنفسه في قرف:"واقع قميء لا قيمة فيه لقيمة إلا لما يمكن أن يُباع ويُشترى!!".. نهض من مقعده الوثير في انزعاج وتوتّر.. تردّد في مسامعه شعار نساء عائلة الباجوري (حقًا لم تكن تعرف محمدًا يا سعادة الرائد)!!.. هتف: "هذه هي الحقيقة.. مفتاح القضية شخصية محمد الباجوري.. لا بد من دراسة نفسية، فكرية، سيكولوجية، موسّعة لتراث محمد الباجوري!!".. انطلق في عزم إلى "حاسوبه المكتبي" المتصل بطابعة الليزر.. فتح متصفح "النت" على محرّك البحث"جوجل".. وكتب:(محمد الباجوري).. أخذ يفتح صفحات المقالات والمشاركات والأبحاث والكتيبات.. حفظ عددًا كبيرًا من الصفحات.. نظّمها كلّها في ملف واحد على برنامج (وورد).. فرك عينيه بكفه، وهزّ رأسه غير مصدّق.. عاد ونظر إلى رقم الصفحة الأخيرة في الملف.. كانت تشير إلى رقم أربعة آلاف وسبعمائة وثمانية وخمسين (٤٧٥٨).. استعرض بسرعة صفحات الملف عن طريق أسهم التمرير ليتأكّد من عدم وجود صفحات بيضاء تتخلَّل الملف الضخم.. ثم أعطى الملف أمر طباعة، وظل ينتظر نهاية عمل الطابعة، وهو يهمس:"إذن هذا ما ورّثه الباجوري.. هذا هو كنز الباجوري الذي لا يعرفه أحد!!.. لو قُدّرت كل صفحة من صفحات ملف تركة الباجوري بمائتي جنيه فقط.. لترك الرجل لأسرته ثروة معقولة!".. ضيَّق عينيه وتذكّر شيئًا قرأه منذ زمن.. إحدى المجلات الكويتية تمنح الكاتب مبلغ خمسة دينارات مقابل كل صفحة منشورة له على صفحاتها.. فتح محرك بحث (جوجل Google)، كتب: "سعر صرف الدينار الكويتي مقابل الجنيه المصري"، وجد أن سعر الدينار الكويتي اليوم يساوي نحو ستين جنيهًا مصريًا!! همس لنفسه: "ما أرخص المصري!!".. ضرب "الحسبة" في رأسه.. وجد أن تركة محمد الباجوري تساوي مبلغًا لا بأس به، بشرط أن يبيعها الورثة لذات المجلة الكويتية التي تدفع مالا في مقابل نشر الثقافة والفكر!!

كانت الطابعة على وشك الانتهاء من طباعة أوراق الملف.. نظر إلى الأوراق بتقدير، قرّر أن يقرأها بنهم، فهي تساوي ثروة مالية لو قُدّر لها أن تُقوّم بالمال!

بدأ بتصنيف أعمال القتيل، أحضر عددًا من الملفات البلاستيكية، وأخذ في التبويب، الأعمال الأدبية في ملف، والأعمال التاريخية في ملف ثان، والأعمال الفكرية في ثالث.. وهكذا.. اصطحب أحد الملفات كان أكبرها حجمًا، لقد قرّر أن يقيم علاقة حميمة مع كتابات القتيل، ورأى أنّ أنسب ما يبدأ به هي الأعمال الأدبية ليحقّق لنفسه شيئًا من المتعة والتسلية.. ودلف إلى غرفة نومه، واستلقى على فراشه وأخذ يقرأ.. في البداية لم يحب ما يقرأ، ومع مرور الوقت، أصبح يقرأ بنهم ومتعة منعته النوم، حتى سمع صوت المؤذن يأتيه من المسجد الكائن بالشارع الخلفي يؤذّن لصلاة الفجر!

اعتدل في فراشه وهو يفرك عينيه من أثر الاستغراق في القراءة.. وهمس:"الله أكبر.. الله أعظم.. يخرب عقلك يا محمد يا باجوري.. لأول مرة منذ سنوات طويلة منذ بدأت العمل في المباحث أسهر كل هذا الوقت ما دمت خارج مكتبي!".. "ما كل هذه الكمية من الفلسفة والأفكار الممتزجة في متعة التخيّلات والصور الأدبيّة المرسومة بحرفية فنان قدير؟".. تذكَّر صديقًا زامله منذ المرحلة الثانوية، لم تكن تظهر عليه ملامح النبوغ.. إلا أنّه تسلّل إلى دهاليز السياسة، أصبح الآن – اللهم لا حسد– محسوبًا على النُخبة.. علم في المرّة الأخيرة التي التقاه فيها في أحد "المولات" مصادفة، أنه يتقاضى من عمله في الجريدة الخاصة التي يكتب إليها –بخلاف راتبه من وظيفته الحكومية– ستة آلاف جنيه!! ثم علم من بعض الأصدقاء أنّ صديقه ذاك الذي يظهر في الفضائيات بمعدّل مرّتين أو ثلاث أسبوعيًا يتقاضى مقابل الظهور في البرنامج الواحد خمسة آلاف جنيه!!.. ضرب جبهته بكفّه في انفعال وهتف:"ويقولون زادت رواتب الشرطة أربعمائة في المائة منذ ثورة يناير.؟! تجيئنا أربعمائة خيبة على خيبتنا الثقيلة!".. اشتاقت نفسه إلى أن يؤدّي صلاة الصبح في وقتها.. تذكَّر بمزيد من الحنين آخر مرة أدَّى فيها صلاة الفجر في جماعة المسجد.. كان ذلك أيام الامتحانات في المرحلة الثانوية قبل أن يلتحق بكلية الشرطة!..

حتى أثناء صلاته التي اشتاق إليها بملء نفسه لم يستطع التخلص من شبح المقارنة بين "دماغ" الباجوري وبين "دماغ" صديقه "سامي" نجم التحليلات السياسية في الصحف والفضائيات.. انتهى من صلاته، وهو يردِّد:"مساكين أصحاب القيم والمبادئ.. مسكين محمد الباجوري وأمثاله وذويهم.. هذا الرجل صاحب "الدماغ" العالية، لو كان يسير مع التيار.. لو تعلَّم فقط مسح الجوخ!! لترك لأسرته ملايين عديدة.. أظنه لم يكن غبيًا وأظنه معذورًا، فالجوخ نفسه بعد ثورة يناير أنواع وألوان.. فأي أنواع الجوخ كان عليه أن يمسح؟؟.. إنّ التقلّب بين كافة الأنواع والألوان فن لا يجيده إلا الأفذاذ من "حربائيّ" الفكر والثقافة والسياسة!".. هتف في قوة: "هيا".. وأزاح أوراق الملف المتناثرة بجواره على الفراش فألقى بها على أرضية الغرفة في إهمال يمدّه باللذّة المفرطة.. أغلق هاتفه المحمول، وسحب "فيشة" هاتف المنزل.. واستلقى على الفراش ليغط في نوم عميق!

استيقظ من نومه بين الظهر والعصر.. نظر في ساعته، شعر أنّه استغرق في النوم دهرًا، نهض متكاسلا وما زال يتثاءب.. مضى إلى الحمام، اغتسل، وخرج بملابس البيت الداخلية، ليفتح هاتفه المحمول، ويضع فيشة هاتف المنزل، ويغرق في مقعد "الفوتيه" في الصالة في قراءة بعض ملفات محمد الباجوري.. بعد ساعتين عضّه الجوع.. تذكَّر أنّه لم يتناول غير القهوة والسجائر منذ عصر الأمس.. هاتف صديقه الرائد وليد دعاه لزيارته ومشاركته – كما اعتادا دائمًا–مناقشة القضية التي أمامه.. قال له في نهاية المكالمة:"أحضر معك شيئا نأكله، ليس في البيت شيئ يؤكل.. احضر أي شيء (تيك أواي).. لا تُحضر لحمًا، لست في مزاج يسمح لي بأكل لحم حمير أو قطط، أو كلاب.. أحضر دجاجًا أو سمكًا.......... ليس سمكًا.. ستبقى رائحته أثناء العمل.. ليكن دجاج.. لا تنسَ إحضار مشروب بارد.. أحضر شيئًا نظيفًا.. ادفع يا (ليدو) لا تبخل بالله عليك.. لا أريد أن أجد ذيول فئران في القارورة.. هيا.. سلام"..

جهَّز عماد قدحًا جديدًا من القهوة الساخنة يُسكت به نداء معدته لبعض الوقت، وعاد ليغرق في أوراق الملفات.. لم يفق إلا على صوت رنين جرس الباب.. نهض دفعة واحدة، كان جائعًا إلى أقصى درجات الجوع.. لقد تجاوزت الساعة السابعة مساء!.

فتح الباب، وهو يهتف في وهَن:

- أهلا ليدو"
- مرحبا يا عمدة..

نظر عماد في هلع إلى يدي وليد الفارغتين، صرخ من أعماقه:

- أين الطعام يا ليدو؟؟ قلت لك سأموت من الجوع.. أنت.....

قاطعه وليد وهو يضحك:

- (دليفري يا مان).. قادم في الطريق.. قلت أسبق أنا إليك لتحدِّثني عن الورطة التي تغوص فيها..

أزاحه بذراعيه جانبًا ودلف إلى الصالة.. هاله مشهد الأوراق المبعّثرة في كل مكان على مقاعد (الأنتريه) وعلى أرضية الصالة.. التفت إلى عماد وهو يتساءل ساخرًا:

- أما زلت تعتمد نظرية الفوضى الخلاقة يا عمدة؟!.. ما كل هذه الأوراق المبعثرة هنا وهناك؟..

تقدّم عماد إلى أحد المقاعد وأزاح الأوراق المتناثرة عليه بقوة فتطايرت في أنحاء الصالة على غير هُدَى!! وقال:

- اجلس يا ليدو.. اجلس وسأروي لك كل شيء عن القضية، كنت أريد أن أتناول الطعام أولا.. ولكن دعنا نتسلّى عن هذا الجوع الكاسر..

لخَّص عماد كل ما يتعلّق بقضية الباجوري لصديقه ثم عقَّب مشيرًا إلى الأوراق المبعثرة في كل مكان:

- في الحقيقة لقد اكتشفت شيئًا رائعًا عند القتيل الباجوري.. شيء أدهشني.. بل بهرني بشدة!"..

سأله وليد منتبهًا:

- هل كان عبقريًا في أفكاره وأسلوبه إلى هذا الحد؟.. أنت يا عم عماد يصعب إدهاشك وإبهارك.. أنت لا يملأ رأسك شيئًا.. فأنت تظن نفسك آخر حكماء عصرك وأوانك..

نحَّى عماد فكرة عبقرية أفكار وأسلوب الباجوري بإشارة معبّرة من يده، وهتف:

- العبقرية ليست في (اللاب لاب)..ليست في (اللوك لوك).. (اللاب لاب) لا يعني لي شيئًا وأنت تعرف ذلك جيدًا.. لا يا وليد.. ليست العبقرية في أسلوبه.. لقد قرأت أفكارًا أكثر روعة من أفكار الباجوري بكثير.. وقرأت أساليبًا أكثر جمالية من أسلوبه بأضعاف المرات..

ضيَّق عينيه وعبس بوجهه وهو يحاول إيجاد التعبير المناسب عن فكرته، أضاف بعد هنيهة:

- لا.. سر عبقرية الباجوري ليست في أفكاره ولا في طريقة عرضه.. سر عبقريته في مدى ارتباطه الوثيق بالأفكار التي يطرحها.. سر عبقريته في شخصيته هو ذاته..

نظر إليه وليد نظرة طويلة مستشفًا ما وراء كلمات عماد من انفعالات.. استطرد عماد:

- لقد قرأنا وسمعنا مئات المفكرين والمصلحين.. الغالبية العظمى منهم تقول كلامًا منمّقًا رائعًا، لا تطبِّق منه شيئًا في أرض الواقع.. هذا الرجل مختلف.....

توقَّف عن الحديث وابتلع ريقه، ثم قال هامسًا:

- أو كان مختلفًا.. الله يرحمه، لقد رحل وانتهى..

سأله وليد في تشوُّف:

- وما سر هذا الاختلاف سيدي المحلل النفسي؟
- لا أعرف.. لا يمكنني أن أجيبك على وجه الدقة.... تعرف يا وليد؟ هذا الرجل كان يطرح أفكارًا بسيطة واقعية، أو أقرب للواقعية بحيث لا يمكنك اتهامها بالمثالية.. أو (الطوباوية) كما يصف أمثالها المتكلمون.. اتفقنا؟!.. ومع ذلك كان سلوكه الشخصي، تصرفاته، أفعاله، ممارساته.. تخيَّل؟ كانت أكثر مثالية مما كان يكتب! كل المحيطين به شهدوا بذلك!

حكّ وليد ذقنه وقال مفكرا:

- غريب فعلا يا عمدة.. من النادر جدًا أن تجد مفكرًا يقدِّم الفعل على القول!.. يبدو أنّ عندك بعض الحق.. هذا مدهش بالتأكيد!

صمت برهة ثم عاد يسأل:

- وهل كانت كتاباته تتعلّق بالفساد المستشري في أوصال العالم؟

أجابه عماد في عفوية المعلِم العليم ببواطن الأمور عندما يخاطب تلميذًا صغيرًا:

- لاا.. فساد ماذا يا (ليدو)؟ الباجوري لا يمكنه حقيقة إلا أن يلمس الفساد الظاهر على السطح.. الفساد الظاهري.. أما إذا أردت أن يُحدّثك أحد عن فساد العالم، فلتأتِ إلى شخص مثلي.. أنا (سبَّاك) يا معلّم.. أنا وأنت (سبَّاكين).. ويدنا ممدودة في أسفل بالوعات الفساد.. في القيعان.. يدنا دائمًا ممدودة في الفضلات الإنسانية.. ملوّثة دائمًا بروْث البهائم البشرية المسماة –زورًا وبهتانًا– بالمتهمين الجنائيين! ماذا يا معلم، ألست منغمسًا معي في أعمال (السباكة) والصرف الصحي إلى الأذقان؟

أجابه وليد وهو يمسك أنفه في تقزّز واضح:

- كفى يا عم عماد بالله عليك.. لقد أثرت قرفي ونحن في انتظار الطعام.. الله يحفظك كفى عباراتك المقززة تلك.

قهقه عماد وقال وهو ما زال يضحك:

- ماذا دهاك يا معلم ليدو؟ تسد أنفك بيدك الملوثة بروث البهائم البشرية!!..

غلبه الضحك برهة، قال وهو يشير إلى أنف صديقه ساخرًا:

- امسح يا ليدو الروَث الذي لوّثت به أنفك.. امسح يا رجل.. عندك (كلنيكس) على المنضدة تحت الأوراق.....

قاطعه وليد بعنف:

- بالله عليك توقَّف عن هذا القرف يا عمدة.. ستصيبني نوبة ترجيع.. الله يهديك يا رب..

استمر عماد في الضحك وهو يقول في كلمات مقطّعة:

- سأتوقّف.. سأتوقّف يا ليدو.. لكن لا تحدثني عن أنّ هناك أشخاصًا آخرين غيرنا يستطيعون الحديث عن فساد المجتمع بأكثر ممّا نستطيع نحن.. نحن نلمسه من القاع.. من أسفل القاع كذلك..

لمح الامتعاض والتقزّز يعود إلى ملامح صديقه، فقال مغيّرًا مسار الحديث:

- حاضر يا سيدي سأرحمك من حديث "المجاري".. تعرف؟.. حتى صديقي (سامي) يستطيع أن يكتب – إن أراد–كلامًا منمّقًا عن الفساد أكثر من محمد الباجوري.. لكن لن يصدقه أحد.. فهو مورّد (ميكروبولجي).. يقتات على نشر الجراثيم الفاسدة في المجتمع!

سأله وليد في حذر خوفًا من انطلاق نوبة جديدة من العبارات المقزّزة على لسان صاحبه:

- ماذا تعني بمورّد (ميكروبولجي)؟
- مورّد ميكروبات وجراثيم حيّة للمجتمع.. هذه هي صنعته ورأس ماله.. مندوب توزيع جراثيم!

قطع رنين جرس الباب استطراد عماد في شرح نظرياته الجرثومية.. وحمد وليد ربه بصوت مرتفع على مقاطعة رنين الجرس لهذا الحديث الكريه، خصوصًا قبل الطعام.. صاح عماد:

- افتح أنت الباب واستلم الطعام فأنت تعرف ماذا طلبت، وماذا أحضر (الدليفري)..

نهض وليد وهو يهمس لنفسه:

- وأنا أدرَى كذلك بما دفعته من نقود، وما سأنقده من بقشيش للفتى الذي بالباب!

أخذ عماد يجمع بعض الأوراق المتناثرة على الطاولة، ويضعها على أحد المقاعد، كان يُخلي الطاولة لاستقبال الطعام، وصاح، وهو يعمل:

- وليد.. يا وليد.. لو تكرَّمت ضع الدجاج في (الميكروويف)..

ظهر وليد خلفه وهو يحمل صينية الطعام وزجاجة الشراب.. وقال وهو يُعمل أنفه بالشم فيما بين يديه مشتهيًا الطعام:

- يا عمدة الدجاج ساخن ورائحته رائعة.. هيا نأكل مباشرة.
- اسمع كلامي يا ليدو.. افعل كما قلت لك.. ضع الدجاج في (الميكروويف).. لدقيقة واحدة فقط.. لن نموت من الجوع في دقيقة..
- يا سيدي والله العظيم الدجاج ساخن ومثل الفل..

- يا ليدو ضعه في (الميكروويف).. نريد أن نطهّره من أثر الأيدي الملوَثّة والجراثيم..

رفع وليد نظره إلى السقف وقال في عناد:

- هذه الوجبة من أفخر وأغلى وأنظف مطعم في المدينة.. لو وضعته في (الميكروويف) سيحترق..

قال عماد في نفاد صبر:

- يا سيدي ضعه فقط لدقيقة.. نأكله محموشًا أفضل من أن نأكله (بالميكروبولجي).. أعرف تمامًا عمّا أتحدّث ولا أريد أن أثير تقزّزك من جديد.. أفخر مطاعم المدينة كأقذرها.. الفرق فقط في كمية الصراصير.. لاحظ الفرق في الكمية وليس في النوعية..

أسرع وليد منسحبًا من أمامه إلى المطبخ قبل أن يخوض في تفاصيل مقزّزة من جديد!!

صاح عماد:

- ستجد الخبز في باب (الفريزر)، ضعه معك في (الميكروويف) لنصف دقيقة.. دائمًا أَفعل ذلك لضمان التخلص من تلوث الأيدي.

جاءه صوت وليد من المطبخ حانقًا:

- حاضر يا سعادة الطبيب الجرّاح.. ألا أجد عندك قُفّازات بلاستيكية معقّمة نرتديها في أكُفّنا لتناول الطعام؟..

أجابه عماد بعفوية:

- جرّبتها من قبل، وجدتها تعيقني عن الاستمتاع بالطعام.. لا ليست فكرة القفّازات فكرة صائبة.. هناك أفكار أخرى أكثر عملية..

(٦)

بعد الانتهاء من وليمة الطعام والشراب، عرض عماد على صديقه وليد كافة تفاصيل القضية.. فكَّر وليد بعض الوقت بجدية، ثم هتف ساخرًا:

- يا أخي اعتبرها انتحارًا وأرح نفسك من الاستمرار في هذه التعقيدات الشديدة!

اعترف عماد أنّه لا يستبعد فكرة الانتحار.. لكن حتى الانتحار تكون له أسباب ودوافع قوية ومنطقية، فليس معقولا أن يُقبل إنسان متزن وطبيعي على الانتحار، دون مبرّرات ودوافع، لا يمكنه أن يصدم رؤساءه بهذا الاقتراح دون أن يقدّم دوافع قوية دفعت محمد الباجوري للانتحار.. الأمر الذي ترفضه كل التحريات السابقة!

لم يكن أمام الرائد عماد إلا أن يستمر في التحريات والتحقيقات، وأن يُكثّف من عمله للوصول إلى مفتاح حل هذا اللغز..

كان عليه أن يبدأ بمقر عمل الباجوري والذي كان عبارة عن شركة من شركات المقاولات المعمارية.. شركة كبيرة لها فروع في عدّة مدن، وعلى الفوَر كان عماد يجلس مع المهندس سلامة مدير الفرع في غرفة مكتبه الفاره.. كان المهندس سلامة نفسه فارها كمكتبه وغرفته.. طويل الجسد ممتلأه.. يتدلّى كرشه أمامه.. عريض الوجه أصلعه، له نظرة باسمة، ووجه يوحي بالبراءة والدعة، أطلعه سلامة في بساطة تعوزها اللباقة على الجانب العملي في حياة الراحل محمد الباجوري، بدأ الباجوري العمل في فرع الشركة محاسبًا، وسرعان ما أثبت كفاءة وجدارة، أهلّته لنيل ثقة أصحاب الشركة، فتدرَّج في المناصب الإدارية بسرعة ليصبح نائب مدير الفرع!.. كان يقوم بجميع أنواع الأعمال غير الهندسية، حسابات، مراجعات، مراسلات، استقبال اتصالات وتنظيمها، مراجعة العملاء والمقاولين، وضع "سيستم الكمبيوتر" الخاص بالفرع وتغذيته والتعامل معه.. كان وحده مؤسسة داخل المؤسسة.. وكان مُلاك الشركة يقدِّرونه حق التقدير ويدعونه إلى الفرع الرئيسي للاطّلاع على تفاصيل العمل.. شعر عماد بمرارة خفية تتسّرب إلى لهجة المهندس سلامة، من الواضح أنّ نجاح الباجوري وتعاظم مكانته عند أصحاب الشركة، كان على حساب رصيده هو

شخصيًا باعتباره مديرًا للفرع وكبير مهندسي الإشراف الفني المتخصّص على أعمال التشطيبات والتنفيذ!!

قال المهندس سلامة ردًا على أحد أسئلة الرائد عماد:

- لم يكن رحمه الله رغم نجاحه في عمله طموحًا..

نظر إليه عماد والأسئلة تقفز في وجهه في دهشة:

- كيف لإنسان يملك كل هذه المهارات العملية وهذه المكانة أيضًا.. ثم لا يكون طموحًا؟!

تلعثم سلامة واختلطت الكلمات المتدفّقة من فمه، أساءه ألا يستوعب الرائد ملحوظته، قال:

- الباجوري الله يرحمه كان طموحًا.. بل طموحًا جدًا إذا شئت الدقّة سيدي الرائد.. لكنّ طموحه كان منصبًّا على نشاطه العام خارج نطاق العمل.. كان يهتم بعمله جدًا داخل أوقات العمل الرسمية فقط وفي حدود المهمَّات المحدّدة، لم يحاول أن يبني عمله الخاص، أو يستغل علاقاته بالعملاء والمقاولين لتحسين دخله مثلا، أو إنشاء عمل خاص به في مجال المقاولات......

قاطعه عماد بنعومة:

- وأنت يا باش مهندس تملك هذا الطموح العملي الخاص؟!

بدا سلامة مُحرجًا بعض الشيء ولكنه قال في عفوية:

- لا أظن أنّه يوجد مهندس في مثل وضعي لا يسعى لتوطيد أركان عمله الخاص أو مشروعه الشخصي..
- بعلم أصحاب الشركة؟
- أفهم ما ترمي إليه سيدي الرائد.. في مجالنا لا غضاضة في الجمع بين العمل في شركات القطاع الخاص وبين المشروع الشخصي، بشرط عدم تضارب المصالح.. عدم عرض نفس الخدمات التي تؤديها الشركة على نفس عملائها، وعدم أخذ عمولة مثلا على المواد والعمالة المورِّدة للشركة.. وهكذا!!

قال عماد وعيناه ممتلئة بنظرة خبث:

- فهمت..

سكت هُنيهة، ثم سأل في لطف:

- وأنت يا هندسة لا تتورّط في مثل هذه المخالفات عند ممارسة عملك الخاص، أليس كذلك؟

نظر إليه سلامة طويلا ساهمًا، ثم انفرجت أساريره وبسط يديه وهو يقول:

- كما ترى سيدي الرائد.. نحاول الحفاظ على النزاهة في أقصى صورها الممكنة.

توقّف قليلا ثم استطرد مبتسمًا في محاولة لإخفاء بعض حرجه:

- ومع ذلك الأمر لا يسلم من بعض المخالفات أو الأخطاء العفوية غير المقصودة....

التقطها عماد أخيرًا وسدَّد سؤاله التالي إلى كَبد الحقيقة:

- وطبعًا الرجل المثالي محمد الباجوري لم يكن ترضيه هذه المخالفات العفوية الطفيفة؟ كان دائم الخلاف معك يا هندسة؟ وربما وصلت هذه الخلافات إلى مسامع أصحاب الشركة....

قاطعه سلامة في إصرار:

- صدِّقني يا سيدي الرائد، الباجوري كان حكيمًا.. كانت لديه القدرة على التمييز بين المخالفات الكبيرة الفادحة التي تدخل في عداد الجرائم، وبين المخالفات العفوية البسيطة.. لا لم يكن ليثير اللغط.. لقد تأكّدت بنفسي في أكثر من مناسبة أنّه لا يتغاضى فقط عما يعرفه من أخطاء طفيفة تحدث دون شك في كافّة الشركات والأعمال، وإنما أيضًا كان يسعى لإصلاح ما يمكنه إصلاحه منها، وسترها،-إن جاز القول-...

انتظر الرائد عماد حتى انتهى من شرح فكرته كاملة ثم باغته بسؤال ألقاه في نعومة:

- ألم يكن يطلب مقابل سكوته هذا وتغاضيه عن تلك المخالفات؟

نظر إليه سلامة طويلا وظهر الكدر على ملامح وجهه الطفولية، بدا أشبه بطفل محاصَر لا يستطيع التعبير عن أفكاره ومشاعره إلا بالبكاء، وجد صوته أخيرًا.. قال:

- يبدو لي سيدي الرائد أنّك لم تعرف محمد الباجوري جيدًا....

قاطعه عماد وهو يكاد يصرخ:

- لا تقل لي أنّه كان مثاليًا في عمله وأخلاقه إلى هذا الحد؟ إلى حد أن تواتيه فرصة سهلة لزيادة دخله المادي ولا يستغلها!!

أجابه سلامة في بساطة:

- هكذا كان محمد.. لم يكن يشغله أمر المال.. كان مُتفهّمًا للهفوات مُقدّرًا لها إلى درجة مخجلة!

تجاهل عماد السؤال عمّن كان يسبب له الخجل، وانتقل إلى جزئية أخرى سأل:

- ورغم إقرارك بمثاليته هذه يا باش مهندس.. أشعر من نبرات صوتك أنّك لم تكن تحبه؟.. لم تكن على وفاق معه؟.. كانت تحدث بينكما كثير من المشاحنات؟.. أليس كذلك؟.. هيا يا هندسة صارحني بحقيقة مشاعرك.. لأنّني سأعرفها.. ثق من ذلك.. أنّني سأعرفها..

بدا التردّد على ملامح وجه سلامة، تململ في جلسته، عدّل من وضع قدميه فوق دوّاسة المكتب، ورفع رأسه وقال في غير ارتياح:

- الحقيقة يا سيدي الرائد كان محمد مثاليًا، ولم أكن أملك إلا أن أحبه وأقدّره أيضًا.. كنت أشعر أنّه صاحب قيم ومبادئ لا يحيد عنها.. ومع ذلك...

تردّد بشكل واضح وبان عليه الكدر.. ساعده عماد مستحثًّا وهو يقول مصطنعًا المرح:

- ومع ذلك؟.. نعم ما بعد السكتة اللطيفة هذه هو ما أريد أن أعرفه.. ضع مكان النقاط جملة مفيدة واضحة يا رجل.

- ومع ذلك كان يفسد بمثاليته هذه بعض الأمور.. كان يتعاطف مع العمّال والمقاولين أكثر من اللازم، كان كأنّما يمثّل مصالحهم ويطالب بحقوقهم لدى الشركة وليس العكس.. رغم ولائه الشديد للشركة التي يعمل فيها ولأصحابها، لم يكن حريصًا على أن تحقّق أرباحًا كبيرة من أي باب.. كان يفرض في حدود عمله وما تحت مسؤوليته وما يستطيعه من جهد أن تكون أرباح الشركة أرباحًا شريفة إلى حد التزمت!

- ألم تقل لي يا هندسة أنّه كان حكيمًا يتجاوز عن الهفوات؟!
- نعم كان كذلك ما لم تُمس حقوق العمّال والمقاولين ومن هم أقل شأنًا للحصول على حقوقهم المالية.. أمّا إذا تعلق الأمر بما يظنه ظُلمًا لهؤلاء، كان يفقد كل حكمته ويتحوَّل إلى خصم أو يصبح محاميًا للخصم..
- وأنت يا باش مهندس كنت تظلم العمّال أحيانًا أو تنتقص من حقوقهم؟

شرح سلامة وجهة نظره قائلا:

- مهنة المقاولات تحتاج إلى رجل يلعب بالبيضة والحجر.. رجل يعرف كيف يُخرج من العمّال أفضل ما لديهم من عمل، إخراج هذا الأفضل لن يكون بالحُسنى دائمًا، إنّما بالتهديد تارة، وإثارة المنافسة والغيرة مع منافس لهم تارة، بالترهيب والترغيب، بالخصم والمكافئة، بتأخير صرف بعض المستحقات لضمان جودة وسرعة الإنجاز..

قال عماد مفكّرا:

- نفس مبادئ رجال المباحث الذين يُخرجون أفضل ما عند المتهمين بأسوأ الوسائل..

صمت بُرهة ثم عقّب بضراوة:

- التعذيب!

قال سلامة بسرعة في فزع كمن يُبعد عن نفسه تهمة:

- لم يكن الأمر يصل إلى التعذيب سيدي الرائد!
- التعذيب النفسي أقسى وأمر مراحل التعذيب يا هندسة.

بهذا التعقيب القاسي اختتم الرائد عماد مقابلته مع المهندس سلامة، نهض من مقعده محدثًا تلك الجلبة التي اعتاد على افتعالها لإرسال رسائل نفسية مختلفة ومتعدّدة لمستمعيه.. استأذن في صخب وخرج من غرفة المدير..

ثم انتقل بعد ذلك إلى صالة الاستقبال بفرع الشركة، حيث استمع إلى أقوال باقي زملاء محمد في العمل والذين لم تخرج أقوالهم عن حدود ما ذكره المهندس سلامة، اتفقوا في المجمل على أنّه كان (نظيفًا)! كان كريمًا عطوفًا على من هم أدنى منه مكانة في العمل بالشركة، صلدًا قويًا في مواجهة من يظن في نفسه أنّه فوق النظام

واللوائح!.. تشاجر ذات مرة مع أحد مقاولي الباطن، حاول –من وجهة نظر محمد– أن يسلب من الشركة ما ليس حقًا له.. وتطوَّرت المشاجرة لدرجة أنّ هذا المقاول هدَّده تهديدًا مباشرًا، فما كان من محمد إلا أن طرده من مكتب المدير المهندس سلامة دون مراعاة لبروتوكولات التعامل!! الأمر الذي وضع سلامة في حرج بالغ.. ومع ذلك شهد موظفو الشركة جميعًا بخصوص هذه الواقعة أنّ الحق كان في صف الأستاذ محمد الباجوري.. واختلف ذات مرة خلافًا حادًا مع مقاول تركيب البلاط والسيراميك، لأنّه انفعل عندما علم بتأخر توقيع المهندس سلامة على (مستخلص الأعمال) الخاص به، والذي يتقاضى وفقًا له مستحقاته المالية، انفعل المقاول واتهم المهندس سلامة بابتزازه، وتعمُّد تأخير توقيع المستخلص ليحصل منه على عمولة.. لم يكن المهندس سلامة موجودًا بالمكتب في ذلك الوقت، فانتفض الباجوري دفاعًا عن سمعة مديره وطرد المقاول مباشرة من مكتبه، وسط دهشة الموظفين والعاملين الذين يلمحون الخلاف المستمر في وجهات النظر بين مدير الفرع ونائبه الباجوري!

تنحنح الرائد عماد وتساءل في تفكر:"هل يمكن أن يوجد ثعبان في هذا الجُحر؟.. وأي الجُحرين يوليه اهتمامًا أكثر مقاول تركيب السيراميك أم المقاول الآخر؟!

لم يفته أن يسجّل بيانات كل من الرجلين لحين سماع أقوالهما..

وعند الاستماع إلى أحد مقاولي الباطن، شعر عماد بالملل من تكرار سماع الشهادات المتطابقة في كل مرة، لم يعد يكتفي بدور المستمع الجيد، قرَّر التنويع لاستخراج أفضل ما لدى ذلك المقاول، سأله بغتة وبحدة:

- وأنتم يا معلم كنتم تستغلّون طيبة الأستاذ الباجوري ورقّة مشاعره وتعاطفه معكم إلى أقصى حد! كنتم تبتزّون مشاعره وتضطرونه للدخول في نزاعات كثيرة مع إدارة الشركة من أجل الحصول لكم على امتيازات لا تستحقونها.. أليس كذلك؟!

قال الرجل في تركيز شديد وبلهجة أولاد البلد:

- الأستاذ محمد ربنا يرحمه، كان محترمًا ونقيًا.. لكنّه لم يكن أبله يا باشا.. لم يكن يستطيع أحد أن يضحك عليه.. كنّا نحترم عقله بقدر ما كنّا نقدّر تعاطفه.. الرجل الله يرحمه ويسامحه كان نصيرًا للحق، وليس للعمّال، لم

يكن يظلمنا.. هذه حقيقة.. لكنّه لم يكن يخون الشركة التي يأكل منها عيشًا، كان أصيلا يعرف قيمة الحفاظ على العيش والملح..

نقر الرائد عماد على بعض الأوراق أمامه بسن قلمه، وهو يقول لنفسه في نفاد صبر:"نعم أعرف، الحقيقة أنّني كسيادة الرائد المفتش لم أكن أعرف الباجوري حق المعرفة!!".. أضاف لنفسه بعدما انبسطت أساريره:"لكن من المؤكد أنّ هذا الرجل كان إنسانًا.. وأنّه كان فعلا جديرًا بالمعرفة.. يشهد له من يتفق ومن يختلف معه!! هل كان مثل هذا الرجل يُصعِّد أي خلاف إلى درجة أن يفكِّر خصمه في التخلص منه؟ ما لم يكن خصمه نفسه مهووسًا بالقتل أو مجنونًا؟!".. أفكار أخرى دارت في ذهنه عن شخصية الباجوري:"رجل نظيف اليد طاهر الذيل، تواتيه فرص الثروة والمال، تعصمه مبادؤه، يجتهد حتى يصل إلى أعلى درجة وظيفية ممكنة في مجال عمله المهني، ويزهد في أن يكون له عمله الخاص!! هل مثل هذا الرجل المحترم يشكّل خطرًا على أحد؟؟.. هل يستطيع مَن كان في مثل ظروفه أن يدهس أوكار الخفافيش؟.. بالطبع كان يمكنه أن يكون خطرًا في أحد حالين، الحال الأولى أن يكون هو نفسه ذا سلطة أو يأوي إلى ركن حصين من قوة أو جاه، والباجوري لم يتمكّن من الوصول إلى هذه السلطة أو القوة.. والحال الثانية أن يتمكن من فضح هذه الخفافيش في النور، أن يفضحهم في الإعلام، وأمام الرأي العام، وأن يقدِّم قرائن ضد فسادهم لدى الجهات الرقابية في الدولة.. فكيف إن كانت أوكار هؤلاء الخفافيش ما هي إلا فروع صغيرة لشبكة عنكبوتية تسيطر على الوضع العام في مجمله؟!.. بعض رؤساء هذه العصابات يملكون وسائل الإعلام ووسائل توجيه الرأي العام، وأكثر من ذلك يستطيعون شراء بعض الذمم في الجهات الرقابية المختلفة؟.. إنّهم يستطيعون أن يقلبوا الباطل حقًا والحق باطلا، ويصبح الباجوري مجرمًا في نظر القانون والرأي العام.. ما أسهل أن يفعلوا به ذلك إن تعرّضت مصالحهم للخطر على يديه!! ولكن إذا كان الأمر كذلك فلماذا يتخلّصون منه بالقتل؟!.. لا.. لا يمكن أن يفكِّر هؤلاء في القتل، فعندهم ما هو أبشع منه بمراحل.. القاتل هذا لا بد أن يكون فاسدًا مبتدئًا أو هاويًا، لم تنضج تجربته في الفساد بعد، وليست لديه خبرة في أساليب القتل المعنوي والنفسي.. إنّه قاتل ساذج طيب!!

****

استمع عماد إلى رأي مقاول تركيب البلاط والسيراميك، والمقاول الآخر، وأفزعهما باحتمال توجيه تهمة قتل محمد الباجوري إليهما!!

العجيب في الأمر أنّ الرجلين شهدا في حق الفقيد شهادة منصفة رغم خلافهما الحاد معه!! اتفقا على أنّه كان رجلا نظيفًا.. وإن كان (خنيقًا) على حد تعبيرهما!

أرهب أولهما بسؤاله:

- لا يمكنك أن تنكر يا سيد محسن أنّك هدّدت القتيل أمام كل الموظفين..

علَّق جملته وانتظر هنيهة قبل أن يضيف بصوت مرتفع وهو ينهض واقفًا ويحرَّك يديه بحركة مسرحية:

- لا يا سيد محسن لا يمكنك أن تنكر هذا التهديد فقد شهد به الجميع ضدك.

زاغت نظرات محسن وفرّ الدم من وجهه ولكنّه حاول أن يتماسك.. قال بعد لحظة تأمل:

- أنا لم أنكر أنّني هدَّدت الأستاذ محمد الله يرحمه.. لكنّ ذلك كان في لحظة غضب.. وانتهى الأمر بمجرد انتهاء الموقف..

سأله عماد متخابثًا:

- وماذا لو أنّ غضبك من الأستاذ محمد تحوّل مع الزمن إلى حقد ظل يعتمل في نفسك حتى قرّرت الانتقام منه.....

أجاب محسن بنفاد صبر:

- يا حضرة الرائد أريد من حضرتك أن تعلم جيدًا أنّني عندما أطلقت عبارات التهديد تلك في حق الله يرحمه، كان أقصى ما أفكّر فيه هو أن أُهينه، أن أُشعره بضعفه.

- تُهينه؟!

أجاب حسين ببساطة:

- نعم أُهينه لأنّني شعرت أنّه أهانني في مكتب المدير المهندس سلامة، قلّل من مكانتي.. وكل ما كنت أتصوّره في لحظة غضبي هو إشعاره بالإهانة وتقليل مكانته..

أخذ عماد وقته في تأمُّل إجابة حسين، ثم باغته بسؤال:

- تريد أن تقول يا سيد محسن أنّك عندما كنت تهدد الأستاذ محمد لم تكن تفكِّر في القتل؟!

أجابه محسن بصدق:

- يا حضرة الرائد أنا لم أفكِّر في حياتي كلّها في قتل أي إنسان.. أمثالنا من أصحاب المهن، لا نحلم مجرّد حلم بأن نقتل إنسانًا..

وعندما كرّر الرائد عماد نفس الأسئلة عن التهديد في وجه المعلم سامح مقاول البلاط والسيراميك، في محاولة لإرهابه والحصول منه على كل معلومة ممكنة، أجابه سامح بعفوية:

- (فنجَرة بُق ولا مؤاخذة يا باشا).. لقد شعرت ساعتها أنّ مسؤولي الشركة سيأكلون عرقي ويماطلون في رفع مستخلص مستحقاتي.. ساعة شيطان (وبعبعت بكلمتين فاضيين يا باشا).. مجرّد كلمتين لأكسر غرور الأستاذ محمد الله يرحمه.. هو في الحقيقة كان محترمًا، لكنّ رأسه كانت مرفوعة أكثر من اللازم.. لا تجوز عليه إلا الرحمة يا باشا..

ولم تخرج تحرّيات المباحث عن محسن وسامح عمّا قالاه أثناء الاستجواب، وإجمالا جاءت التحريّات لتؤكّد الصورة التي كوّنها الرائد عماد للشخصين، لم يكن التهديد في ذهن أي منهما يتجاوز معنى الإهانة أو رد ما يتصوّران أنّه إهانة.. لا شيء أكثر من ذلك على الإطلاق، فصحيفتاهما الجنائية كانت بيضاء، والمخالطون لكل منهما شهدوا بأنّ أعلى ما في خيْلِهما (فَنجَرة بُق)!

****

انتقل بعد ذلك إلى المقاهي الثقافية التي كان الفقيد يقضي عليها بعض أُمسياته.. كان يدرك أنّه ليس ثمّة ما يمكن اعتباره مقاهٍ ثقافية في المدينة.. كلّها كانت مقاهٍ عادية تقدِّم (الشيشة) والشاي والقهوة، وشاشات عرض الفضائيات المشفّرة لعرض مباريات كرة القدم المعروضة على (b in sport) حصريًا، ومن ثَمّ الانتقال إلى عرض فضائيات من نوعية (فلول–المولد–التت–.........) ومختلَف فضائيات الكباريهات عمومًا.. ثمّة (كافيهات) أرقى تستقبل الشباب والفتيات أزواجًا(couple) وأفرادًا (single)، كانت تقدّم نفس ما تقدّمه المقاهي ولكن بأسلوب أنيق وبأسعار مضاعفة.. من الواضح أنّ محمدا الباجوري ورفاقه من ثُلّة المثقّفين – غير المرضي عنهم–(داسوا) كافّة أنواع المقاهي و(الكافيهات).. جلسوا على المقاعد البلاستيكية البسيطة المصفوفة بالعشرات على الأرصفة خارج تلك المقاهي.. كما جلسوا على المقاعد الوثيرة في (الكافيهات) الأغلى سعرًا.. ورغم أنّ أغلبهم لم ينتموا إلى كيانات أو تنظيمات سياسية حقيقية على الأرض.. إلا أنّ (أولاد الحلال!) من مرتادي هذه المقاهي، والعاملين فيها، كانوا يرتابون فيهم ويثيرون الشكوك حولهم.. ولم يكن لهم ظهر يستندون إليه، فكانوا يتحاشون إثارة الشبهات بالتواجد في مكان واحد قد يعتبره عادّوا الأنفاس عليهم مقرًا دائمًا لهم.. لذلك كان تطوافهم الدائم على كل مقاهي المدينة!!

إنّ هذه الثُلّة من المثقّفين–المغضوب عليهم– ينتمون إلى مشارب شتّى، جمعهم سخطهم على الوضع العام وحلمهم بالتغيير إلى الأفضل.. كان منهم إخواني الهوى، ومنهم الليبرالي، واليساري، والحداثي، والمحافظ، والراديكالي، ولم يكن منهم من ينتمي لتنظيم ما سياسي أو غير سياسي.. كانوا طلقاء ثائرين على كل قيْد.. يصعب استيعابهم في نمط ما.. كانت تربطهم علاقات جيدة وأكيدة مع نظرائهم المنتمين إلى تلك التنظيمات السياسية والاجتماعية والثقافية، لكن هؤلاء المنظّمين كانوا يضيقون بأمسياتهم ذرعًا، فهم بطبيعة انتمائهم منحازون إلى تنظيماتهم، انحيازًا يصل إلى التعصب في بعض الأحيان، والمتعصبون لا يستسيغون مثل هذا النقد اللاذع أحيانًا! كان على الرائد عماد أن يستمع إلى آراء وأفكار وشروحات هؤلاء المثقّفين وأولئك النشطاء، ولا بأس من تحمُّل –ترّاهاتهم– أحيانًا.. بعضهم كان مثاليًا حالمًا، وبعضهم

كان مكتئبًا يائسًا، وآخرون كانوا محبطين، أو حانقين.. والقليل كان يعمل في هدوء مراهنًا على معركة الوعي، مؤمنًا أنها معركة طويلة تُحسَم نتيجتها بالنقاط، وليست بالضربة القاضية.. هؤلاء كانوا لا يؤمنون بالمعادلات الصفرية!!.. محمد الباجوري كان واحدًا من هؤلاء الواقعيين المراهنين على معركة الوعي!!

وبخصوص محمد اتفقوا جميعًا على أنه كان محترمًا، وإن لم يكن محبوبًا بشكل خاص.. كان ناقدًا لاذع النقد لكثير من الأوضاع والأفكار المطروحة والتنظيمات القائمة.. وأنّه مهما كان موضوعيًا ومنصفًا، لكنّه لم يكن يجامل على حساب ما يؤمن أنّه الصواب.. كانت الأُمسيات التي تجمعه معهم ثَرية بالحوارات المثمرِة، والمعلومات الدقيقة القيّمة، خالية من ترديد الشائعات أو الأقوال غير الممحّصة، لكنّ هذه الأُمسيات ذاتها كانت أكثر انضباطًا ممّا يحلوا لهم أن يكونوا عليه!!

وجّه عماد سؤالا عاما:

- كانت أمسياته (خنيقة).. أليس كذلك؟!..

ابتسم لنفسه ثمّ أضاف:

- أعرف الراحل محمد الباجوري كان (حُقنة).. بلُغة الشباب؟

نظر بعضهم إلى بعض في دهشة ممزوجة بالامتعاض، وأجاب أحدهم، والذي أخرج مِبسم (الشيشة) من بين شفتيه ليتكلّم وهو يبتسم ابتسامة عريضة:

- لم تكن جلسته أكثر تحفظًا، و(خنقة) من جلسة حضرتك!

سعل عماد، واعتدل في جلسته ورفع يده يُعدّل من وضع ياقة قميصه وقد شعر بحرجٍ بالغ.. وغمز أحدهم للمتحدّث بعينه لينتبه لما سببته ملاحظته من حرج، فأضاف بعفوية:

- لا تؤاخذني عماد باشا، قصدي أنّنا كنّا في أمسياته كما نحن الآن مع حضرتك.. رغم أنّ الأستاذ محمد رحمه الله كان ملتزمًا دينيًا بشكل أساسي.. إلا أنّه كان يحترم الحرية الشخصية.. كنّا نجلس معه، ومن يدخّن الشيشة يدخّنها، ومن يدخِّن السجائر يدخّن، ومن اعتاد على توجيه السباب البذيء –ولا مؤاخذة– للآخر سياسيًا وفكريًا، يوجّه سبابه.. لكنه لم يكن يصمت تجاه ترديد التُهم جُزافًا.. حريصًا على عدم خوض أحدنا

- لا سمح الله- في الأعراض.. يرفض تكوين القناعات والأفكار الخاطئة.. ولذلك كنا..

علّق عبارته ونظر حوله مشيرًا بكفّه في إشارة معبّرة شملت الجميع، دون أن يترك ليْ الشيشة من يده الأخرى، واستطرد:

- كنّا جميعًا نحترم وجوده معنا في تلك الأمسيات.. كان محمد عاملا من عوامل الضبط الاجتماعي للمجموعة..

ردَّد عماد لنفسه:"أي أنه من الآخر كان (خنيًقا).. كان سجَّانًا باسم القيم والمبادئ والأصول والأخلاق! "

(٧)

أخذ رؤساء عماد يستحثّونه ليقدّم تقريره النهائي، ويرفع ملف القضية وما أجراه من تحريات إلى النيابة العامة، لقد استغرق زمنًا أطول من اللازم لبحث قضية لم تكن ذات أهمية خاصة. القتيل نفسه لم يكن ذا شأن خاص أو حيثية. حياته لم تكن تهم أحدًا غير ذويه المقرّبين، وهؤلاء قوم مؤمنون بالقضاء والقدر، وسرعان ما ينسون ما حدث ويستأنفون الحياة!

كان هذا ما يريد أن يقنعه به العميد شريف مأمور القسم.. كانت هذه هي رغبة مدير الأمن كذلك..

- نريد أن نتفرَّغ لعملنا.

رنّت في مسامع عماد ملاحظة قالتها السيدة إيمان زوجة القتيل، بأنّ الشرطة لن يكونوا مهتمّين اهتمامًا حقيقيًا بمعرفة قاتل زوجها، وسرعان ما سيُحفظ البحث في القضية، وتُقيّد ضد مجهول!! شعر بالخجل من نفسه، لقد وعدها حينها أنّ شيئًا من هذا لن يحدث.. كان شخصيًا يكره الإخفاق.. وشكّلت شخصية الراحل لديه حافزًا إضافيًا لكشف غموض الجريمة.. إنّه يدرُس علم النفس، وهذه القضية وتلك الملابسات جديرة حقًا بالتأمّل والملاحظة.. لا بد أن يصل فيها إلى قرار نهائي.. كان أمر العميد شريف له هذه المرة نهائيًا وحاسمًا بتحويل ملف القضية بالكامل إلى النيابة العامة.. ولم يكن أمامه إلا الانصياع التام ولو كان ممتعضًا بَرِمًا!! حدّث نفسه وهو يؤشّر على ملف القضية بالعرض على النيابة العامة، ويرفعه إلى المأمور ليؤشِّر عليه بدوره:"هيا.. إن محمد الباجوري نفسه كان يتجاوز عن......." بحث عن الكلمة التي استخدمها المهندس سلامة برهة في ذاكرته حتى وجدها:"كان يتجاوز عن الهفوات الصغيرة التي لا تشكِّل جرائم كبيرة.. نعم وأنا أيضًا كمفتش مباحث صاحب مبادئ وقيم ومتبحِّر في مجال علم النفس.. لا بد لي أن أتجاوز عن مثل هذه الهفوات!!.. تجاوز يا عم عماد.. تجاوز ولا تصبح خنيقًا"..

رغم هذا الانصياع لأوامر القيادة، ورغم انشغاله في عدد من القضايا الجنائية الأخرى، إلا أنّه لم يستطع أن يُرضي كبرياءه، أو يُسكت إلحاح صوت الفضول الشديد لديه، فقرّر بينه وبين نفسه قرارًا..

****

مضت الحياة بأسرة الفقيد كما قرَّر العميد شريف مأمور القسم، فسرعان ما انخرطوا في تيار الحياة، وقد طوى كل فرد فيهم حناياه على الأحزان والحنين.. لقد ترك رحيل محمد فراغًا لا يمكن أن يُنكر، فراغ على المستوى العملي والواقعي بدا في أوله كخرْق لا يمكن إصلاحه أصاب سفينة الحياة، فجنح بها عن شاطئ النجاة إلى عباب بحرٍ لُجي تغشاه ظلمات بعضها فوق بعض، يتقاذفها الموج من كل جانب، وهي تهبط وترتفع.. تخبط في التيه كإنسان يتخبّطه الشيطان من المس!! فلا هي غرقت وغرق ركّابها جميعًا، ليموتوا.. ولا هي استقامت على الجودي!

كان كل منهم على حدة يقلّب وجهه في السماء.. فعفاف تقلّب وجهها في السماء عند الفجر، تناجي روح أبيها الحبيب.. وحسام يناجي الأحبة عند الغروب، وهو يدعو في خشوع:"اللهم إنَّ هذا إقبال ليلك، وإدبار نهارك، وأصوات دعاتك.. فاغفر لنا.." تدمع عيناه طويلا، ثم يُردف ذلك الدعاء المأثور بدعاء حار لأبيه الراحل.. أمّا إيمان فقد كانت تقلّب وجهها في السماء عند الشروق وعند الغروب، تسأل ربها الثبات والإجارة في مصيبتها.. ثمّ.. ثمّ لا تقوى على الدعاء بأن يُخلف عليها بخير منها.. تتساءل في جزع:"وهل هناك يا الله على وجه أرضك اليوم من هو أفضل من محمد؟!".. أمّا الجدة فوقية فلم يكن يرفأ لها جفناً، ولا يهنأ لها بال، ولم يجف لها دمع، إلا إذا قرَّرت تمثيل دور الصابرة المحتسبة أمام أحفادها، فتأمرهم بالصبر وتحثُّهم على الثبات، فإذا فارقوها لتختلي بنفسها أمطرت عيناها مدرارًا!..

ثمّ.. ثمّ دارت عجلة الحياة.. بدأت في دورانها رتيبة كئيبة تشاركهم الأحزان والآلام، ومن ثَمّ زادت سرعة دورانها، ليبقَ شعور الفقد على المستوى النفسي وحده.. ظل الحنين يزداد، والأشواق تتسع، والذكريات تموج بالوجدان.. غير أنّ الأمل في اللقاء عندما يتبدّد إلى غير رجعة، يخلُفه يأس قد يحمل في طياته بردًا وراحة لا تعليل لهما!

سرعان ما انخرطت عفاف في انشغالها بدراستها وواجباتها الجامعية، وإصرارها على الحفاظ على التفوق وفاء لعهد أخذته على نفسها أمام الراحل الحبيب!

وانشغل حسام أشد الانشغال بدروس الثانوية العامة، فهي عنق الزجاجة، أو بالأحرى كما أصبح الطلاب يطلقون عليها، (سدادة الزجاجة) أمام طموح ومستقبل الشباب! لقد أصبح لزامًا عليه أن يحقّق آمال أبيه فيه..

وحاولت إيمان أن تكثّف جهودها في عملها، وأصبحت تقبل عروضًا عملية ما كان لها أن تقبلها من قبل، أرادت أن تجعل عملها هو كل شيء في حياتها، فلم يعد في الحياة وجود لهدف تحيا من أجله!

وعندما استشعرت فراغًا تدور حوله حياة أفراد الأسرة رغم انشغالهم بأعباء الحياة، أو رغم ادّعائهم الانشغال بأعبائها، دعتهم مع الجدة فوقية إلى عشاء كان أشبه بعشاء تأبين الحاضر الغائب، وقالت مخاطبة الجميع:

– اسمعوا جميعًا.. لن نشعر بالفراغ.. لن نستمرئ الضياع.. سنعيش الحياة من أجله.. سنعيشها لتحقيق طموحات الحبيب الذي فقدنا جسده.. فقدنا إطلالته البهيّة، وبشاشته المحبّبة، فقدنا دُعابته ومزاحه.. صبره وجلده.. لكنّنا لم نفقد روحه.. روح محمد حيَّة بيننا لا تموت.. لأنها روح مرتبطة بالحق، والحق لا يموت.. روح وثيقة الارتباط بالجمال والرُقي والسُمو.. لقد أراد لنا أن نُحيي الجمال في هذه الحياة.. أرادنا محمد أن نكون أصحاب رسالة، وأصحاب الرسالات لا يستسلمون للأحزان.. ولا تقهرهم صروف الحياة..

أكملت إيمان كلمتها الطويلة المؤثِّرة بشق النفس، وهي تجاهد بكل طاقتها حتى لا تغلبها الدموع السخيّة، ولم يُجبها أحد سوى بالانخراط في البكاء.. لكنها رغم تلك الأجواء الملتهبة، دعتهم في إصرار مبتدئة بالجدة فوقية وهي تهتف:

– ضعي كفَّكِ هنا يا ماما فوقية على المنضدة..

ثم طلبت من عفاف وحسام أن يضعوا كفّيهما فوق كفّ جدتهما، ثم وضعت كفّها فوق الأكف، وهمست:

– هذا عهد بيننا وبين روح محمد.. ومن قبله رب محمد.. أن نحافظ على أحلام وآمال وطموحات تلك الروح الطاهرة..

تعاهدوا بنبضات القلوب ودموع الأعين المختلطة بأكفّهم أن يحفظوا هذا العهد.. كانت ليلة غاية في الصعوبة والألم، لكنّها من وجهة نظرها كانت تمثّل العقبة التي لا بد من اقتحامها للانطلاق.. وانطلقت الأسرة كل في ميدانه يشق طريقه من أجل تحقيق أحلامهم التي تُترجم أحلام الفقيد!..

****

في مقر فرع شركة المقاولات التي عمل بها الراحل مخلصًا، سرعان ما تمخّض الحزن الذي لف الزملاء، والرهبة التي سيطرت على مشاعرهم لأول نبأ وفاة محمد المفاجئة، عن مصمصة ذات مغزى للشفاه كلما ذُكر اسم الراحل.. لقد أسّس نظامًا، وساهم في وضع لوائح وبروتوكول للعمل داخل مقر الفرع، يهتف البعض في تعجب:

- خطفه الموت..

فيرد آخر:

- سبحان من له الدوام..

ويعقّب ثالث:

- كان رجلا والرجال قليل..

- لكن الحياة لا تقف على أحد..

كما يقول المهندس سلامة.. وعاد المزاح يشق طريقه شيئًا فشيئًا في أرجاء المقر، وعادت دُعابات مقاولي الباطن والعمّال، وأخذوا يتقرَّبون من الذي خلَفَه للعمل على خزائن فرع الشركة.. لا بد للمصلحة في النهاية أن تقول كلمتها.. ولا بد لصوت الحكمة والعقل أن يسيْطر على انفلات العاطفة وأنّات القلوب!

وعلى مقاهي المدينة و(كافيهاتها)، عقد ثُلّة المثقّفين من أصدقاء الراحل أمسيات التأبين، فكانت كل ليلة تقريبًا أمسية جديدة للتأبين والذكرى، حتى إذا أقبلت ليلة الأربعين شعر الجميع أنّه وفّى وكفّى.. لقد أدّوا واجب الصداقة لروح الصديق الصدوق، وانشغل كل، -وتشاغل البعض-بشؤونه وأحواله، ومستجدات الساعة من أحداث السياسة والاقتصاد وحوادث المجتمع.. وتحوَّلت ذكرى محمد الباجوري إلى ذكرى طيبة حلوة، إذا أطلّت برأسها على أمسية من الأماسيّ، فإنما تطل عليها بردًا

وسلامًا تحمل في طياتها روحًا وريحانًا.. كانت تدور بينهم ذكراه عطرة بكل ما في الكلمة من معنى، لا تثير حزنًا أو شجنًا! ولا تُخلّف في النفوس ظلالا من الضيق أو الكآبة.. أمسوا يستقبلون التذكِرة باسمه باسمين، كأنهم يُهدون تلك البسمات لروحه مع الدعوات المستمرة!

****

بدأ الرائد عماد بعد انقضاء تلك المدّة من الزمن في وضع قراره الشخصي موضع التنفيذ.. بدا في البداية متحيرًا بمن يقع عليه الاختيار أولا.. فكّر في حسام.. وحار بينه وبين عفاف.. ثم استقر رأيه أخيرًا على أن يبدأ بلقاء حسام!

داوم على مراقبته عدّة أيام وهو ينطلق إلى دروسه، قبل أن يدبّر لقاءً بدا عفويًا معه.. لقاه صدفة وهو يقود سيارته في أحد الشوارع الجانبية ويقع فيه المركز التعليمي "السنتر" الذي يتلّقى فيه حسام بعض دروسه! توقَّف بسيارته بمحاذاته، وناداه متصنّعا الدهشة:

– أمعقول أنت حسام الباجوري؟!.. سبحان الله!! والله يا أخ حسام كنت أفكّر فيك وأريد لقاءك منذ فترة.. تفضّل اركب أوصلك في طريقي.. تفضّل.. تعال..

شكره حسام بأدب ولباقة محاولا أن يتعلَّل بأي ذريعة ليفلت من هذه الدعوة.. لكنّ الرائد عماد أصر على دعوته.. ولم يكن أمام حسام إلا أن يلبِّي!

في السيارة دعا عماد حسام لتناول الشاي في أحد (الكافيهات).. تململ حسام وحاول التملّص من إجابة الدعوة.. قال له عماد في مرح:

– لا تكن بخيلا يا أخ حسام.. لقد كنت فعلا أفكِّر في لقائك.. هناك بعض الأمور أود استيضاحها منك..

أجابه حسام بسأم:

– أسئلة واتهامات وتلميحات جديدة بخصوص قضية أبي!

– في الحقيقة يا أخ حسام لقد تم إغلاق ملف القضية.. وأظن أنّك تعلم أنها قُيّدت في النيابة ضد مجهول..

قال حسام مُظهرًا تبرُّمه:

– هذا ما علمناه بالفعل حضرة المفتش.. وعرفنا من خلاله قيمة وحقوق الإنسان في هذا البلد.. ولذلك فأنا في غاية العجب من محاولة حضرتك فتح ملف القضية من جديد!

حافظ عماد على مرحه في مجابهة اتهامات حسام الواضحة له بالتقصير، وهتف:

– يعجبني ذكاءك يا أخ حسام.. يعجبني تمرُّدك، وأظن أنني سبق وعبَّرت لك عن إعجابي هذا..

سكت لحظة ليتأكّد من أثر عبارته على حسام، ثم أضاف:

– ولعلّك تعلم أنّني في نفس حالك من الضيق والتبرُّم من عدم كشف غموض القضية.. لقد.. لقد قلت لنفسي أنّ حسام هو سر أبيه وهو أقدر الناس على معاونتي في هذا الأمر..

كانا قد وصلا إلى أحد المقاهي الراقية.. ترّجل عماد من السيارة وهو يشير لحسام في ود:

– هيا يا حسام، نحتسي معًا الشاي، ونتحدَّث قليلا..

رفع حسام سبابته في وضع تحذير، وقبل أن ينطق بادره عماد:

– أعرف يا حسام أنّ وقت طالب الثانوية العامة ثمين جدًا.. لن أعطّلك أكثر من الزمن الكافي لاحتساء الشاي..

علَّق حسام:

– أفهم من ذلك حضرة المفتش أنّ ملف القضية ما زال مفتوحًا؟!

– ليس على المستوى الرسمي يا أخ حسام.. وإنّما على المستوى الشخصي.. فإنّ أمر هذه القضية يهمني إلى حد بعيد..

قال حسام بغير اقتناع:

– وهل إذا توصّلت إلى نتيجة ما حضرة المفتش، سينعكس ذلك على قرار النيابة بشأن حفظ القضية؟

– لا بد أن نصل إلى الحقيقة أولا.. ثم نحرّك الموضوع في النيابة..

سكت مفكِّرًا لحظة، ثم استطرد:

– أعتقد أنّنا لو توصّلنا إلى نتائج حاسمة فستأخذ بها النيابة.. ليس أمامها غير ذلك..

لم يبدُ على حسام الحماسة أو الإثارة أو حتى مجرّد الاهتمام بما سمع، ممّا دفع عماد إلى مباغتته بالسؤال الحقيقي الذي التقاه من أجله، قال:

– ألاحظ يا أخ حسام تحسّنًا واضحًا في حالتك.. شخصيتك نضجت بسرعة بعد رحيل والدك.. صحتك – ما شاء الله تبارك الله–من الواضح تحسّنها بصورة جيدة.. يبدو لي أنّك تسير في دروسك أيضًا سيرًا حسنًا.. لقد أطلق غياب أبيك يا أخ حسام قدراتك الكامنة.. أليس كذلك؟!

نظر إليه حسام طويلا، كانت نظرته هذه المرة تفيض بالازدراء.. هزّ كتفيه وقال في تصميم:

– لن أجيبك حضرة الرائد.. أكبر ظني أنّك لن تفهم إجابتي!

قال عماد متلطّفًا:

– ثق أنّني سأحاول أن أفهم يا أخ حسام.. هل كان والدك يعطّل قدرتك على استثمار طاقاتك وإبراز شخصيتك وطموحك إلى هذا الحد؟!

أشاح حسام بوجهه، وقال بعد برهة:

– إنّه اليُتم حضرة المفتش.. عندما تفقد السند، وتعلم أنّه لا حيلة أمامك إلا الاعتماد على الذات.. فستعتمد عليها.. لم يكن أبي –رحمه الله– كابتًا لقدراتنا وطاقاتنا الكامنة.. لكنّه كان يبقيها في حالة مخزون استراتيجي حضرة المفتش..

نظر إليه مليًا، ثم وجّه إليه سؤالا بدا غير ذي صلة:

– لماذا تُبقي أمريكا على مخزونها الاستراتيجي من البترول وتستورد ما تستهلكه من دول الأوبك؟!

رفع عماد كفّيه وقال:

– أفهمك تمامًا أخ حسام.. أفهمك، وأقدّر احترامك لاجتهاد والدك وحفاظك على سيرته النقية بعد وفاته..

خلال تناول الشاي لم يحاول عماد العودة إلى الأسئلة، كأنّه اكتفى بما سمع.. سأل بدلا من ذلك عن تفاصيل دراسة حسام، واطمأنّ منه على أفراد الأسرة..

وفي السيارة لم يحاول أن يفتح معه حديثًا جديدًا، اكتفى بأن أدار مسجِّل السيارة، فانبعث صوت (حمزة نمرة):

"حياتي عمرها ما كانت باختياري..

غاصب عني لقيتك بتاخد قراري..

بتعاملني كأنّي مجرّد خيال..

وإنّ جيلنا ده كله شويّة عيال..

لا.. إحنا ملّينا السكوت..

لا .. خلاص بأقولها بأعلى صوت..

اسمعني.. أنت اللي بتضيّعني..

للماضي بترجّعني..

وعايز تحبسني فيه..

أحلامي أنت اللّي قضيت عليها..

لما اتحكّمت فيها..

طب فاضل ليّ إيـه؟؟"..

كان عماد يقود السيارة متمهّلا، وهو ينحرف بعينيه بين لحظة وأخرى ليرقب تعبيرات وجه حسام على المقعد المجاور.. سالت دموع على وجنتي حسام في صمت.. ابتسم عماد ابتسامة مَن وضع يديه على مفتاح حل اللغز.. قال:

– أرأيت يا أخ حسام.. لقد مات السجان.. من داخلك أنت سعيد بموته.. دموعك هذه دليل على الصراع بين قيمك الوفيّة لأبيك ومشاعرك المتمردة على سجنه..

قاطعه حسام بصرامة:

– قلت لحضرتك أنّك لا تعرف أي شيء.. أنت تريد أن تُرضي ضميرك المهني بهذه الأوهام.. تريد أن تدّعي أنّك وصلت لحل اللغز.. المسألة ليست هكذا حضرة الرائد.. لقد دمعت عيناي؛ لأنّ كلمات هذه الأغنية بالتحديد هي آخر ما سمعته ينطق به رحمه الله.. كان يداعبني بها، لأنه كان متيقّنا من أنّه ليس سجّانًا، وأنّنا لا ننظر له تلك النظرة أبدًا!..

مسح دموعه، ونظر إلى عماد بثبات واستطرد:

– السجّان الحقيقي يهرب من الاعتراف بتلك الحقيقة ولو في المزاح.. لن يصارحك بمثل ذلك إلا إنسان واثق كل الثقة من براءته مِن هذه التُهمة.. هكذا كان الإنسان محمد الباجوري.. أبي..

همس عماد:

– أصدّقك يا أخ حسام.. أصدّقك..

أغلق الصوت، وأضاف:

– وأحترِم خصوصية مشاعرك!

(٨)

كانت عفاف –رغم أحزانها الدفينة وجراحها النفسية–متألِّقة بين زميلاتها في الجامعة.. كانت تُعد نفسها لتحافظ على مكانتها بين العشرين الأوائل على فرقتها الدراسية.. ولم تكتفِ بتفوّقها الدراسي والأكاديمي، لكنّها كانت تستغل كل فرصة مواتية للتقدّم إلى مسابقات الفضائيات الخاصة سواء تلك المسابقات التي ترشّحها لها الكليّة، أو تلك التي تسعى إليها سعيًا عن طريق تواصلها الدائم عبر الإنترنت.. في الوقت نفسه الذي بدأت فيه مع مجموعة من صديقاتها وزملائها إعداد أول برنامج تلفزيوني للمجموعة بالجهود الذاتية، والعمل على تسويقه للفضائيات المصرية، بعدما تمّ الإعلان عنه والترويج له عبر نشر بعض حلقاته على موقع (YouTube).. واختاروا له عنوان: (مفيش صفيح).. كانت حلقات البرنامج تسلّط الضوء على قضية أطفال الشوارع باعتبارها قنبلة موقوتة تهدِّد المجتمعات المعاصرة.. واجتهد طلاب المجموعة في تصوير وتسجيل حلقات البرنامج بالكامل في الشارع مع أولاد وشباب الظاهرة، من دون اللجوء إلى الاستوديوهات للقاء المختصين والمنظِّرين والفلاسفة.. أرادوا أن ينقلوا التجربة من الواقع بالكامل.. وتعرّضوا في سبيل ذلك إلى عقبات وعوائق لم تكن أصعبها المضايقات الأمنية والروتينية للحصول على التصريحات اللازمة للتسجيل في الشوارع، ولا تعنّت إدارة الكلية في منحهم التوصيات اللازمة لإتمام التجربة.. كانت رؤية الإدارة هي عدم استهلال حياتهم العملية بمثل هذه البرامج التي تتعامل مباشرة مع قضايا شائكة، والتعرّض لأوضاع اجتماعية فشل الكبار في احتوائها والتعامل معها.. لكنّ عفاف وزملاءها لم يزدهم العنت إلا إصرارًا وعنادًا!.. ولم تكن مشكلة البلطجة والتحرّش التي واجهتهم عند التسجيل هي كبرى المشكلات الواقعية.. لقد اكتشفوا أنهم في (مفيش صفيح).. يتعاملون مع عالم آخر غيْر العالم المنظور.. عالم سُفلي يعيش بالكامل تحت الأرض.. عالم مسحور بالجريمة والشذوذ والإدمان والفقر والجهل والمرض.. عالم له قيَمه وأفكاره وقواعده المنظِّمة وقوانينه الحاكمة بعيدًا عن قيَم وتراث الإنسانية المتعارف عليها!.. لقد كانت

لُغة التواصل نفسها مفقودة بينهم وبين هذا العالم العجيب المسحور!.. كل من العالميّن قد يستخدم مفردات لُغوية مشتركة.. لكن بدلالات معنى مختلف تمامًا! وقد كانت لغة التواصل هي أصعب ما في تجربة البرنامج.. شكّلت الحلقة التي تم تسجيلها مع الصبيّة (سفنجة)، تجسيدًا لهذا المعنى.. فمثلا الشهامة والأمانة وكتمان السر عند صبيّة مثل (سفنجة) تتمحوّر حول قدرتها على كتمان أسماء وأعداد الفتيان الذين يبيتون في أحضان صديقتها (وردة) كل ليلة! حتى لا تثير المشاجرات والفتنة بين الأصدقاء من فتيان الرصيف!.. فلو علموا بحقيقة الأمر لقتل بعضهم بعضًا بالخناجر والسِنج والسيوف.. كما لو أنّها نطقت بكلمة لاعتُبرت من الجميع (منفسنة منها) وحاقدة عليها لعدم إقبال الفتيان عليها بالاهتمام نفسه.. إنّها تقوم بمهمّتها الإنسانية المقدّسة وتكابد ضبط لسانها، كما تعاني وهي تقوم بفضيلة نُكران الذات من أجل قيَم وأصول حاكمة للبيئة التي تعيش فيها!

لقد أدّى كل فرد في المجموعة (grub) دوره بإتقان على أكمل وجه.. وكان لعفاف قصب السبق في إعداد وتنفيذ مشروع هذا البرنامج الجريء.. لقد اقترحت قضية البرنامج أساسًا من خلال بعض الأبحاث التي قدَّمها أبوها عن تلك القضية الاجتماعية الشائكة، لقد استفادت من تلك البحوث تمامًا في إعداد التقارير اللازمة للبرنامج، بالإضافة إلى مشاركتها صديقاتها في تقديم الحوارات مع بنات الشوارع أمام الكاميرا، فكان دورها مزدوجًا أمام الكاميرا وخلفها، بالإضافة إلى كونها صاحبة براءة اختراع فكرة المشروع من الأساس.. وكانت تعقّب على ثناء زملائها وأساتذتها على فكرة مشروع البرنامج قائلة في فخر:

– إنها فكرة أبي رحمه الله.. هذا البرنامج برعاية روح محمد الباجوري.. وأنتم جميعًا شركاه في تنفيذ المشروع.. أما أنا فمجرد وسيط بين (الجروب) وبين الروح الملهِمة!.

برز لها هكذا فجأة كأنما انشقت الأرض عنه!.. كانت متجّهة من أمام قُبّة الجامعة إلى مبنى كلّيتها،لم تصدِّق ما أخبرها به من أنّ اللقاء جاء بمحض الصدفة العفويّة.. قال متلعثمًا وقد بدا عليه بعض الاضطراب:

– آنسة عفاف.. صدفة رائعة والله العظيم..

كانت تنظر إليه نظرة ثاقبة شعر لها أنّها تُسلِّط عليه جهازًا إشعاعيًا لكشف الكذِب.. أضاف وعلى ملامحه علامات المفاجأة:

– كنت أراجع قسم الدراسات العليا في كلية الآداب.. تعرفين أنّني أدرس ماجستير في علم النفس..

ظلَّت تصوّب إليه نفس النظرة الثاقبة دون أن تنطق.. أضاف في لطف:

– لكنّني في الحقيقة وددت لو قابلتك آنستي.

تساءلتْ في امتعاض:

– هل من جديد حضرة الرائد بخصوص مقتل أبي؟

– لم أكن أريد مقابلتك لهذا الغرض..

أجابته بصرامة وهي تشيح بوجهها عنه:

– وهل بيننا أي أغراض أخرى لنلتقي بخصوصها سيدي؟!

صفعته لهجتها الاستنكارية، لكنّه تمالك نفسه وقال في مرحه المعهود:

– في الحقيقة أحببت أن أهنئكِ على مشروع برنامجك الرائع.. (مفيش صفيح)....

– ليس برنامجي حضرة الرائد.. أنا مجرّد عضو في فريق عمل كبير..

– ألم تكن فكرة البرنامج هي فكرتك؟ أو بالأحرى هي مستوحاة في الأساس من أفكار وأطروحات والدك الراحل؟!

أجابت في برود ظاهر:

– أرى حضرة الرائد أنّك قرأت أعمال والدي بشكل جيد خلال الفترة الماضية..

– أليس هذا أمرًا يُسعدك آنسة عفاف؟

أجابت في قسوة وهي تنظر إليه بثبات:

– الذي يسعدني حضرة الرائد هو معرفة المتسبّب في موت أبي.. أما قراءة أبحاثه فهي عملية تتم كل يوم في مختلف أنحاء العالم.. فإن لم يكن أبي مشهورًا على نحو خاص، فإنّ تراثه البحثي متاح للجميع..

فكّر عماد في نفسه قائلا:

– كم هي ذكية ودقيقة هذه الفتاة!!.. لماذا استخدمت عبارة –المتسبّب في موت أبي– عِوضًا عن العبارة الأكثر ملائمة لحالتها النفسية – قاتل أبي–؟!..

تساءل في عفوية:

– بالمناسبة يا آنسة عفاف وددت أن أسألك عن معنى عنوان البرنامج..

نظرت إليه بُرهة صامتة، كأنها لم تستوعب مغزى السؤال.. كرّر على مسامعها:

– معنى عنوان (مفيش صفيح)؟..

أجابته في ازدراء لم تحرص على مداراته، ولو من باب المجاملة:

– أقصى ما يمكن تناوله في الإعلام قضايا تمس المقيمين في المناطق العشوائية.. أو الذين يقطنون في عشش الصفيح.. أما الذين لا يجدون عشش الصفيح فلا يراهم أحد!

شعر بالمرارة المتسرّبة مع عبارتها.. ولم يجد ما يعقّب به.. أراد أن يوجِّه حديثه جهة قضية أبيها، بادرته قبل أن يجد سؤالا مناسبًا:

– بعد إذنك حضرة الرائد، لديّ محاضرة في التو..

استوقفها بإشارة من كفّه:

– استفسار بسيط وأخير فقط آنسة عفاف، ولن أُزعجك بعده.. ممكن لو تكرمتِ؟

التفتت بجسدها إليه في انتظار الاستفسار.. قال في توجّس:

– توقّعت أنّ فتاة رقيقة وعاطفية مثلك.. قد تنهار بسبب الوفاة المفاجئة لأبيها.. ولاحظت أنّ العكس تمامًا هو الذي حدث!

استدارت لتمضِ في طريقها كأنّها لم تسمع ملاحظته.. وهمّت بالانصراف وهو ينظر إليها في أمل ألا تُغادر دون كلمة.. همست وهي على هذا الوضع:

– هل جرّبت اليُتم حضرة الرائد؟.. اليُتم الحقيقي للبنت هو موت أمّها وهي صغيرة في حاجة ماسّة إليها.. إنّ التي تتجاوز عقبة اليُتم الحقيقي.. تستطيع بعد ذلك تجاوز كل شيء.. اطمئن حضرة الرائد لسنا سُعداء برحيل أبي كما يُخيِّل لك

وهمك.. نحن فقط نسعى لإسعاد روحه وإتمام رسالته.. ولو على حساب أنّات قلوبنا.. تشرّفنا حضرة الرائد.. سلام..

ومضت في طريقها لا تعبأ بشيء!

****

لم يفته نظرة الحزن الساكنة في أعماقها.. حتى في ثياب الحداد بدت في غاية الأناقة والتميز.. كانت وهو يجلس في المقعد المقابل لمكتب عملها.. كمّا تخيَّل صورتها تمامًا، السيدة الشامخة، أو كما يلقّبها البعض في الشركة التي تدير أهم ملفاتها (المرأة الحديدية)!.. نظرت نحوه في ابتسامة عملية لبقة.. ابتسامة سيدة أعمال محترمة لأحد عملائها المحتملين.. سألت في لطف:

– كيف أستطيع أن أخدمك سيادة الرائد عماد؟

– في الحقيقة لقد سعدت هذا الأسبوع بلقاء الأخ حسام والآنسة عفاف..

أطلقت صيحة تعجّب خافتة.. ثم تساءلت:

– ثمّ جئت لزيارتي في مكتب العمل لتُكمل ملف زيارات العائلة؟!

بدا عليه الارتباك ولكنّه قال بصوت مرتفع كأنّما ليداري حرجه:

– في الحقيقة سيدة إيمان.......

قاطعته ببرود:

– في الحقيقة سيادة الرائد عماد أنت مدين للأُسرة باعتذار كبير.. كما أنّك مدين لي باعتذار آخر على نحو شخصي..

قال متلجلجًا:

– لكنّني لم أقصد الإساءة أو التدخل في أمور عائلية أو أُسرية بأي شكل من الأشكال..

– ليس لتدخّلك أو عدمه سيادة الرائد.. أنت وجهاز شرطتك مدين بالاعتذار لنا لأنّكم فشلتم في معرفة كيف؟ ولماذا مات زوجي محمد الباجوري.. أمّا اعتذارك الشخصي لي سيدي....

صمتت معلّقة جملتها وهي ترمقه بنظرة حادة..

تفادى نظرتها بالعبث في سلسلة مفاتيحه، ثم قال:

– أعرف سيدتي أنا بالفعل مدين بالاعتذار لكِ بخصوص ذلك الحديث الذي دار بيننا ظهيرة يوم الوفاة.. نعم لقد كنتِ محقّة تمامًا في قولك ذاك..

– والآن؟!..

كان واضحًا من نبرات صوتها وطريقة إلقاء السؤال أنّها تُصرفه تقريبًا من مكتبها، خاصة وقد ركّزت انتباهها على شاشة الحاسوب أمامها متجاهلة النظر إليه.. أجاب وهو يتشبّث بكرامته:

– والآن سيدة إيمان أنا مُصر على الوفاء بديوني وديون جهاز الشرطة لأسرة الفقيد.

– هل جئت تُبلغني بنبأ القبض على القاتل؟

– لا يمكنني التبجّح بذلك بعد.. لكنّني جئت لطلب المساعدة......

قاطعته بقوة:

– المساعدة مجددا؟!.. ألم نقدّم لك كل المعلومات الضرورية، وتحدّثنا معك مطوّلا عن طبيعة العلاقات الخاصة التي هي أسرار يجب أن تُحفظ وتُصان.. ماذا فعلت بكل هذا؟ لم تفعلْ أيّ شيء.. ثم جئت لتطلب مزيدًا من الأسرار.. يؤسفني أن أصارحك سيادة المفتش عماد أنّك تلهو وتتسلى بالقضية..

شدّ عنقه بعنف وقال في حسم:

– لست أنا الذي يلهو سيدتي.. لقد اتفقنا منذ البداية على أنّ هذه قضية داخلية.. ولا أقصد بذلك أن القاتل واحد من أهل بيت الراحل، وإنّما أقصد أنّ مفتاح حلّها يكمن في طبيعة شخصية القتيل، وطبائع شخصيّات المحيطين به.. لقد بحثت الملف من كل جوانبه.. قرأت تراث القتيل كما لم أقرأ في حياتي من قبل.. ومستعد أن أقدّم رسالة دكتوراه عن شخصية القتيل وخصائصه الفكرية والنفسية.. ومع ذلك أؤكد لكِ أنّه ليس ثمّة مؤامرة خارجية وراء وفاته.. الأمر داخلي بحت..

أرادت أن تصفّق له محيّية في سخرية على مرافعته العصماء عن أدائه في تلك القضية، راعت أنّها في مكتب عملها، فنظرت إليه هازئة وهي تتساءل:

– وهل خمّنت سيادة المفتش مَن مِن الداخل يمكن أن يكون سبب الوفاة؟!..

– يؤسفني أن أُبدي ملاحظة عابرة سيدتي بأنّ جميع أفراد أُسرة الراحل تحسّنت أحوالهم بشكل لافت بعد وفاته!

نهضت من مقعدها برشاقة، وهي تشير بيدها جهة الباب وتهمس في حزم:

– في مثل هذه الحالات يجدر القول بأن المقابلة انتهت.. لكن في الحقيقة أنّ حضرتك جئت على غير موعد سابق، وجئت لا تحمل في جُعبتك إلا سخافات.. ولذلك فمن الأفضل أن ألتفت إلى أعمالي المعلّقة.. شكرًا لك..

نهض عماد متراخيًا.. كان يشعر بالخِزي والهوان.. لم يكن في وضع يسمح له بالمجادلة.. قرّر أن يترك الأبواب مرخيّة ولو قليلا بينه وبين أسرة الباجوري، قال:

– لا بد وأنّني أصبحت مدينًا لك سيدتي باعتذار ثالث.. أقدّم لكِ أسفي العميق.. لم أقصد توجيه أي إساءة من خلال ملاحظاتي العابرة تلك.. كانت مجرّد فكرة أردت معاونة منك فيها.. لكن يبدو.....

ترك جملته معلَّقة، ومضى بخُطى وئيدة نحو الباب.. تمنّى مع كل خطوة أن تتراجع عن موقفها العدائي، وتستوقفه لتفهم مغزى ملاحظاته.. لكنّ السيف كان قد سبق العزل.. لم تكن إيمان من النوع الذي يمكن أن تتراجع عن موقف اتّخذته بحزم..

****

استقبلته بنظرة ترحاب صامتة لا تُخطئها العين.. نظر إليها مليًا.. بدت أمامه محنيّة الظهر.. لم تكن على الصورة التي رآها عليها أول مرة.. لقد قصم موت الراحل ظهرها.. هي الوحيدة في أسرة الباجوري التي أثّرت فيها وفاة محمد تأثيرًا سلبيًا واضحًا.. والوحيدة في الأسرة أيضًا التي استقبلته، وفي نفسها كل هذا الحنان.. كأنّ ذكرى رؤياه هي آخر تذكار لها من حياة ابنها الراحل.. مجرد أنّ عماد كان موجودًا وجودًا استثنائيًا يوم وفاة فقيدها جعل مرآه يثير سعادة وحنينا لذكرى الابن الغالي.. قالت وقد اغرورقت عيناها بالدموع:

– تفضل يا ابني..

أفسحت له بصعوبة مكانًا أمام الفتحة الضيقة للباب ليدلف منها.. كانت حركتها صعبة وببطء.. لم يسبقها إلى الداخل وإنّما مد إليها ذراعه لتستند عليها.. عندما جلس قُبالتها قال لها في صدق:

- عندما أحضر إليك أنسى تمامًا أنّني ضابط شرطة أو مفتش مباحث.. لا أتذكَّر سوى أنني ابن بين يديّ والدته..

أومأت برأسها، وقالت في حنان:

- مرحبًا بك يا ولدي في كل وقت.. رغم أنّك لم تكن من أصدقاء محمد.. إلا أنّ الظروف التي قابلتك فيها أول مرة.. تجعلني عندما أراك فكأنّما رأيت ابني الراحل..

سمح لدموعه أن تنساب على خديه ربما لأول مرة منذ أن عمل في المباحث.. قال وهو يجفّفها بأنامله:

- دعيني أتخلّى عن المهنية بشكل كامل.. أنا عماد الجالس أمامك يا حاجّة فوقية، مجرّد صديق لابنك محمد.. لقد قرأت لمحمد وعن محمد ما جعله قريبًا جدًا لنفسي وتمنّيت لو أنّني عرفته قبل ذلك.. لقد فقدت أمي في فترة كنت في أشد الحاجة إلى حنانها.. مجرّد النظر إليك يغمرني بهذا الحنان المفقود بالنسبة لي.

- شكرًا يا ولدي..

لفّهما الصمت، كانت فرصة لكليهما أن يتذوّق حلاوة أحاسيسه العذبة في هدوء.. كان البادئ بكسر حالة الصمت:

- تعرفين يا حاجّة فوقية أنّني على نحو رسمي قد تركت قضية محمد..

صمت برهة ثم استطرد:

- دعيني أصارحك.. أُجبرت على ترك قضية محمد على غير إرادة مني.. لم أسترح لهذه الطريقة، ولا النتيجة التي آلت إليها!!.. لذلك قرَّرت بيني وبين نفسي أن أصل للحقيقة مهما كلَّفني الأمر..

علّقتْ بفهم:

- تحقيق قطاع خاص..

– الله يفتح عليكِ يا حاجّة.. تحقيق قطاع خاص.. لا سلطان لأحد عليه سوى الحقيقة.. وأنا في أمس الحاجة لمعاونتك..

– وأنا تحت أمرك..

تَفكّر قبل أن يطرح سؤاله، حاول أن يختار عباراته بدِقّة ولباقة متناهيتين:

– كانت لي ملحوظة أود لو تساعدينني في تفسيرها.. أفراد الأسرة جميعًا انطلقوا في حياتهم العملية انطلاقة ممتازة بعد وفاة الراحل.. لم تعقهم الوفاة عن اجتهادهم لتحقيق طموحاتهم..

صمت بُرهة، وكان لديها من الصبر والرزانة ما يجعلها لا تتعجّله في عرض فكرته.. أضاف:

– لا يخطر على بالي اتهام أحد من أفراد الأسرة فهذا شيء بعيد البعد كله عن العقل والمنطق السليم.. لكنّني أفكّر في اتجاه آخر.. أريد أن أسأل حضرتكِ وأرجو أن تساعديني بمنتهى الصدق..

نظر إليها نظرة استجداء.. طمأنته بإيماءة من رأسها.. أضاف:

– هل كان حبهم لمحمد وانبهارهم بشخصيته عامل من عوامل الضغط عليهم؟ كانوا مثلا يبحثون عن إرضائه أكثر من محاولتهم إرضاء أنفسهم؟!..

توقَّف لالتقاط أنفاسه، واستطرد:

– هل كان محمد بمثاليته يسجنهم في أحلامه؟ يحبسهم فيما يريد منهم أن يكونوا عليه؟

أخذت وقتها في التفكير ثم قالت في رزانة:

– لقد وعدتك يا ولدي أن أجيبك بالصدق.. نعم.. لقد كانت عاطفة محمد جيّاشة.. كان حبه لمن يحب أسرًا لا فكاك منه.. إيمان على سبيل المثال.. أعرف أنها تحب محمد بجنون.. لا أريد أن أدلّل على ذلك.. يكفيك أن تثق في إحساس المرأة بالمرأة.. ومع حبها هذا كانت تتمرّد وتهرب.. لا لأنّه كان يعيق طموحها، لقد كان عونًا لها فخورًا بكل نجاحاتها ومشاركًا معها فيما تحققّه في حياتها العملية.. لكنها كانت تخشى من نفسها هي أن تنطمر فيه..

صمتت وتركت له فرصة أن يستوعب فكرتها، ثم أضافت:

– لكن سجن الحُب هذا الذي كان يحرسه محمد.. أو كما يمكن أن يطلقوا عليه القفص الذهبي.. لم يكن عائقًا أمام اختيارات الأسرة.. محمد كان يتّفق مع كل اختيار ينبع من داخل أي فرد من أفراد الأسرة..

بدت الحيرة على ملامح وجهه، تساءل:

– لماذا إذن ظهر هذا الفارق الواضح في أداء الجميع بعد وفاة محمد؟..

نظرت إليه مليًا، ثم قالت وقد وضح عليها التفكير:

– لقد ضاعفوا مجهودهم.. وازدادوا إصرارًا.. إنهم يتقدَّمون وفاء لروح الراحل..

تساءل في دهشة:

– أما زالوا يعيشون بكيانهم في سجن حُبه؟ بين جدران القفص الذهبي؟!

– ربما يا ولدي.. لا يمكنني الجزم.. لكن إذا أردت توصيف الأمر على هذا النحو، فلا يمكنني أن ألومك..

– سؤال أخير حاجّة فوقية.. هل شعر محمد بأنّ وجوده بينكم يصنع هذا القيد أو القفص، ولو كان من ذهب؟ وهل كان هذا الشعور يرضيه أم يحنقه؟

– كان يقول في راحة تامة، أنه لا يصنع القيود.. القيود تصنعها قيَم معيّنة، كل ما يستطيع فعله هو محاولة نقل وتفسير تلك القيَم ومعانيها.. فإن كانت ثمّة قيود – والتعبير ما زال لابني محمد كما تفهم– فإنّ القيَم هي التي تضعها وليس هو..

تململ في جلسته وبدا عليه الإحراج واحمر وجهه، قالت في إشفاق:

– أثارت إجابتي لديك فضول لسؤال آخر.. تفضّل يا ولدي.. أريدك أن تفهم لتستريح..

– ماذا كان يمكن أن يكون رد فعله، لو تمرَّد أبناؤه على قيود تلك القيَم؟ ذكرتِ حضرتكِ أنّه كان يترك لهم حرية الاختيار.. يبدو لي أنّ الاختيار في النهاية بين أمرين محدودين للغاية.. كأنّه يخيِّرهم قائلا:"بلاها نادية.. خُد سوسو"..

– لا يا ولدي.. كانت الاختيارات أمام الجميع مفتوحة.. كانت له فلسفة في التوجيه تقول.. لكل فرد الحق المطلق في اختيار منظومته القيمية.. لكنها إن تعارضت مع منظومتنا.. فلن نستطيع إجباره على ما لا يريد.. ولكن عليه أن يمارس

منظومته المتعارضة معنا بعيدًا عن دعمنا.. كان يقول:"العاطفة والحب والدعم والمؤازرة (صندوق) واحد مع منظومة القيَم.. فإمّا أن تختار هذا الـ(صندوق) كلّه.. وإمّا أن تختار الآخر بمغرياته وعقباته.. عقباته أنّك ستمارسه بلا دعمنا ولا مؤازرتنا ولا عاطفتنا.. عشْ اختيارك واعتمد على نفسك"..

علّق معتذرًا:

– اسمحي لي سيدتي أن أقول إنّ محمد رغم عاطفته الجياشة كان قاسيًا.. كان يضع من يتولَّى مسؤولياتهم بين خيارين في غاية القسوة!

قالت في عفوية:

– نظرية أكْل العنب أو قتْل الخفير.. ليس من الحكمة أن تجمع بينهما!

همس لنفسه:

– إمّا عنب اليمن أو بلح الشام.. من يتردّد بينهما يفقدهما معًا..

ثم أضاف بصوت مرتفع وهو ينهض ليهمّ بالانصراف:

– شكرًا لك..

قالت معتذرة:

– لا تؤاخذني يا ولدي.. شغلَنا الحديث عن تقديم واجب الضيافة.....

– لا تتعبي نفسك يا حاجّة.. واجبك وصل وزيادة

نظرت حولها، ونظر في اتجاه بصرها، رأى عدّة الشاي والقهوة على منضدة في الركن قريبة من متناولها في وسطها غلاية كهربائية.. قال في مرح:

– إذا لم يكن في الأمر إجهاد.. فأكرميني بفنجان قهوة من يديك يا (ست الكل)..

(٩)

ساءت حاله، وتدهور مظهره.. نبت شَعر ذقنه بشكل غير منتظم، ممّا أضفى عليه كآبة إضافية.. حتى غرفة المكتب من حوله بدت في فوضى عارمة.. قُصاصات ورق متناثرة في كل مكان.. أكثر من فنجان من فناجين القهوة مهملة هنا وهناك.. منفضدة السجائر ممتلئة برماد السجائر وأعقابها.. دقَّ جرس الباب.. صاح بصوت واهن:

– ادخل يا وليد.. استخدم مفتاحك وادخل..

دخل وليد متلفّتًا حوله وهو يبدي استياءه بما يراه من فوضى في كل مكان.. دلف مباشرة إلى نافذة الغرفة المغلقة، ففتحها على مصراعيها، وهو يحرّك كفّيه في حركة معبّرة يُبعد عن وجهه رائحة الدخان العابق بالغرفة.. صاح فيه عماد بصوت مخنوق بعدما سعل بشدة:

– ما هذا الذي تفعله يا وليد؟.. ستفسد عمل مكيّف الهواء؟!..

أجابه وليد في تبرّم:

– ماذا يفعل مكيّف الهواء في هذا الجو البئيس يا عمدة.. سوف تختنق يا رجل إن لم تجدِّد هواء الغرفة.. لا بد من القيام بحملة نظافة وترتيب قبل أن أجلس..

قال عماد في سأَم:

– افعل ما تريد.. لكنّني لن أنهض من مكاني.. أنا مُجهد ولا أقوى على إنجاز أي شيء سوى الكتابة على الفيس!

انحنى وليد يجمع قصاصات الورق من على الأرض، نهض وتقدّم إلى منفضة السجائر حملها بحذر حتى لا يتطاير الرماد.. هتف وهو يتحرَّك جهة المطبخ:

– الناس تأخذ عطلة من العمل لتذهب إلى الساحل الشمالي.. إلى أي شاطئ لتغيير الجو.. والتخلّص من أعباء العمل طوال العام وضغوطه.. وأنت منذ حصلت على عطلتك تدفن نفسك في هذا القبر!

غاب وليد في المطبخ بضع دقائق، ثم عاد وهو يمسك أنفه بصورة معبرة، وعلَّق في دهشة:

- إنّك على حافة قتل نفسك يا عمدة.. ماذا تفعل في نفسك.. ولماذا؟.. ثم قل لي ماذا تفعل طوال اليوم.. وطوال الأيام الماضية على الفيس؟.. تصطاد (موزز)؟!

تقدّم من صديقه، وجذبه بإصرار وهو يهتف:

- انهض يا رجل انهض.. قم أحلق ذقنك، وخذ حماماً منعشاً.. وهيا معي.. سنخرج الليلة إلى العالم الحقيقي.. دعك من هذا العالم الافتراضي..

حاول عماد التملّص.. لكن إلحاح وليد كان أقوى من أن يقاوَم، فنهض معه على مضض.. لكنّه طلب من وليد في رجاء أن يذهب معه عند الحلاق فلا يريد أن يغامر بحلاقة ذقنه غير المهندمة بنفسه، يشعر أنّه إن فعل فسيجرح نفسه جرحًا غائرًا!

بالفعل خرج عماد أخيرًا من عزلته بصحبة صديقه.. ذهبا إلى الحلاق وشعر بالانتعاش والحيوية.. وفعلت السهرة التي دعاه إليها وليد مع بعض الأصدقاء في نفسه مفعول السحر!

وفي طريق عودتهما إلى منزله سأله وليد في اهتمام:

- ألن تخبرني بما تفعله على الفيس يا صديقي ويجعلك تبتعد عن العالم بهذا الشكل المقلق؟!..
- قضية محمد الباجوري يا سيدي

سأله وليد في دهشة ممتزجة بشعور أقرب للغيظ:

- الباجوري مجددا؟!.. ألن تنتهي من هذه القضية يا سيادة الرائد؟!..
- إنها تشغلني وتؤرّقني يا وليد.. لن أستطيع التفرُّغ لغيرها ولا حتى العمل بشكل جيد إلا إذا وصلتُ إلى قرارها.. تستفزّني شخصية الباجوري.. وتستفزّني أكثر شخصيات المقرّبين منه.. كنت أرجو أن تتجه القضية نحو الانتحار.. كان هذا أقرب تفسير ممكن لحل غموضها.. بحثت في

هذه الجهة تحت كل طوبة، كما يقال.. لم أجد أي مؤشّر أو مبرّر لأن يتخلَّص هذا الرجل من حياته تحت أي ظرف من الظروف!

كانا قد ترجّلا من السيارة وأخذا يسيران في أحد الشوارع الهادئة.. كانا ينقلان الخُطى في دعة واسترخاء ويتناقشان في أمر القضية.. سأل وليد:

– لم تجبني.. ما علاقة قضية الباجوري بانشغالك المريب بالفيس كأنّك أدمنته فجأة؟!

جذب عماد ذراع صديقه واتجه به إلى سور متوسّط الارتفاع يقوم كحد لإحدى أراضي البناء.. جلسا سويا ليشرح له.. علّق وليد وهو يشير إلى نسمة الهواء المنعشة التي يشعرون بها في تلك اللحظة:

– أترى هذا الهواء المنعش؟.. كيف تترك الهواء الرباني، وتُقبر نفسك مع رماد السجائر وبقايا البُن في فناجين القهوة؟!

نحَّى عماد هذه الملاحظة العابرة جانبًا وقال في جدية:

– لقد أنشأت صفحة عامة على (الفيس) باسم (قضية محمد الباجوري).. أرفع عليها أهم المحطّات في حياة الراحل وأهم أعماله وأبحاثه ودراساته ومقالاته.. وأحفّز من خلالها من يعلم شيئًا يفيد في حل غموض قضية وفاته أن يدلي بتلك المعلومات من خلال الصفحة......

قاطعه وليد محتجًا:

– هذا أمر في غاية الخطورة، أنّه قد يسيء إلى صورتك كرجل شرطة!

أجاب في بساطة:

– هذه صفحة عامة مثل صفحة (كلنا خالد سعيد) مثلا.. أو غيرها من الصفحات العامة.. وغير معروف لدى المتابعين مَن هو مسؤول (admen) الصفحة.. إنّي أمارس هذه اللُعبة من خلال الصفحة لا بصفتي مفتش مباحث، ولكن بصفتي من الباحثين في علم النفس وصديقًا للقتيل يريد أن يصل إلى الحقيقة التي تقاعستْ عن الوصول إليها الشرطة والنيابة العامة..

- وهل من الممكن أن تؤدّي هذه اللُعبة كما تصفها إلى نتائج ملموسة في اعتقادك؟!

أجابه عماد في حماسة:

- إنّها تؤدّي إلى ضرب عدة عصافير بحجر واحد.. فتراث هذا الرجل يستحق أن يُخلَّد.. وشخصيته ذاتها تستحق التكريم والوفاء.. والصفحة تؤدّي تلك الوظائف بالإضافة إلى تحفيز ملكة التفكير لدى متابعيها للتشاركية في حل اللغز..
- لم يكن الرجل مشهورًا في حياته، فهل ستحظى صفحة تتناول أعماله بشعبية بعد وفاته؟
- هذا دور ترويج الصفحة عبر الإعلانات المدفوعة في الفيس يا (مان).. هذا يجعل متابعيها يزدادون يوميًا بالآلاف!
- آه.. الموضوع تخطّى مرحلة اللُعبة إذن يا معلم؟.. إنك تموّل العملية من جيبك الخاص!

قال عماد وهو يعلن التحدّي في مواجهة الفراغ المطّل عليه:

- نعم يا صديقي.. وسأصل إلى نتيجة ما.. لا تسألني عنها الآن لأنّني لا أعلم كيف ولا ماذا ستكون.. لكن الحدَس.. (حدَس مفتش المباحث) هذه المرّة يؤكّد لي أنّ بصيصًا من ضوء في آخر ذاك النفق!

****

وصدق حدَس مفتش المباحث.. كان عماد يطرح من خلال الصفحة العامة التي تنشر تراث الباجوري عشرات الأسئلة المستفزّة.. كان يطرح تلك الأسئلة باعتباره مسؤولا للصفحة التي سرعان ما تحوّلت إلى حملة، وباعتباره ناقمًا على الجميع!!.. فكان ينشر إحدى مقالات (محمد) عن الفساد ثم يطرح السؤال الكبير في صورة وسم (هاشتاج): (#المقال_القاتل)!! ويربط بين محاولة الباجوري كشف المستور في ملف الفساد وبين عملية اغتياله.. ويتبنّى نشطاء مواقع التواصل الاجتماعي (الهاشتاج).. لعدّة ساعات، وتحدث ضجة إعلامية يتخلّلها مئات التعليقات الساخنة والجريئة والغاضبة والساخرة والهزلية.. كان عماد كما يقول: "يصنع (حالة) حول اسم محمد

الباجوري! ".. فإذا أصابت هذه الحملة أهدافها، واطمأن عماد إلى وصولها ذروة التفاعل وبالتالي الدخول في مرحلة الخفوت والانكسار، أتبعها بموجة أخرى جديدة في الاتجاه المعاكس تمامًا.. فينشر بحثًا أكاديميًا أعدّه الراحل عن (عوَار التنظيمات الدينية الشمولية ووجوب تحرير المصطلح وتفكيك المفاهيم!).. ويضع في عنوان الدراسة (هاشتاجًا) بعنوان: (#ضحية_الإرهاب_الأسود)!

وبمجرّد نشره تلك الدراسة بهذه العناوين الاستفزازيّة، تنهال على الصفحة آلاف التعليقات الغاضبة والآراء المتعصّبة، والاتهامات الجُزافية التي تتراوح بين التكفير والعمالة المخابراتية والجهل والتخلّف العقلي ومعاداة السامية!

رصد عماد باعتباره محلّلا نفسيًا حالة هوس التقديس التي تنتاب أتباع تلك التنظيمات حتى تصنع صورة تضاهي في ضراوتها تلك الصورة التي تصنعها الصهيونية العالمية في رسم أكذوبة معاداة السامية!

يتساءل عماد في تعليق بريء في منشور مستقل:

- إذا كانت هذه هي عينة عشوائية ممّا تطفح به نفوس المصابين بالهوَس التنظيمي الديني.. تعليقًا على بحث أكاديمي مات صاحبه.. سعيًا لاغتياله معنويًا وإهالة أكوام من التراب الأسود الكثيف على تراثه البحثي.. فهل كان حال حياته معرّضًا للاغتيال الجسدي من بعض متطرّفي هؤلاء المهووسين؟ أليس التطرّف الفكري والشعوري والنفسي مقدّمة طبيعية للتطرّف المادي القائم على استخدام العنف لإخراس الأصوات المخالفة؟!.. هل قُتل محمد ليسكت صوته للأبد؟!

****

استمر عماد في إدارته لصفحة (تراث الباجوري) بهذا النشاط حتى قاربت عطلته على الانتهاء، وأخيرًا جاءه الشيء الذي ظل ينتظره دون أن يدرك كنهه.. جاءه هذا الشيء في صورة رسالة وصلته على (صندوق الرسائل الخاص) للصفحة.. كانت الرسالة تحمل عنوانًا كبيرًا رهيبًا:"أنا قاتل محمد الباجوري".. فرك عماد عينيه.. فتحهما على اتساعهما وهو يعاود قراءة العنوان في دهشة بالغة!..

عاد برأسه إلى الخلف مسندًا رقبته إلى مسند مقعده، ورفع رأسه إلى الإضاءة الخافتة وتنفَّس بعمق قبل أن يهتف لنفسه في جزل:"أخيرًا.. أخيرًا ظهرت أيها القاتل؟!"

كان هذا هو عنوان الرسالة الخاصة، أما مضمونها فقد جاء متردّدًا مضطربًا يتقدَّم صاحبها خطوة ثم يتراجع خطوات.. كتب يقول:"كنت منتهى الأمل لأمّي تلك الأرملة التي ضحّت بحياتها – بكل ما في معاني كلمة تضحية من معنى– حتى تراني التحق بإحدى كليات القمّة.. عاشت على الكفاف الحقيقي، وتحقَّقت بعض أمانيها فتخرَّجتُ في كلية الصيدلة بتفوّق يسمح لي بأن التحق بالعمل في سلك التدريس بالكلية لولا أنّني كنت بدون ظهر أستند إليه.. ومن ثَمّ التحقت بالعمل بإحدى الصيدليّات بوسط المدينة.. وكان لكفاءتي وقدرتي الفطرية على تشخيص الأمراض كما الأطباء سببًا رئيسيًا لشهرة الصيدلية التي أعمل بها وإقبال كثير من العملاء عليها.. وتحت ضغط العمل المتواصل المجهِد.. بدأت أرتكب بعض الأخطاء العملية البسيطة.. من كان يكتشف مثل هذه الأخطاء أو يريد أن يشكو منها كان يجابَه بحائط صلد من المشيدين بأدائي.. ربما أصابني شيء من غرور أدَّى إلى نوع من التراخي.. جاءني السيد محمد الباجوري يشكو من مغص كلوي حاد ومفاجئ.. علمت منه أنّه فاجأه في طريق عودته إلى منزله.. وأنّه ربما كان يصيبه على هذا المستوى الرهيب من الألم للمرة الأولى أو الثانية على الأكثر.. وأنّه لا يتذكَّر متى كانت آخر مرة شعر فيها بمثل هذا المغص.. وأنه لم يُجرِ أي فحوصات طبيّة نظرًا لفجاءة ما ألمّ به وعدم تكراره.. وأمام هذه المعطيات المرضية التي شرحها لي، تحرَّكت شهوتي التشخيصية.. قلت له في هدوء:

- اطمئن يا أستاذ.. الأمر بسيط جدًا.. مغص كلوي مفاجئ.. سأعطيك مسكِّنًا قويًا لتستطيع النوم هذه الليلة.. في الصباح التالي عليك مراجعة أحد المستشفيات لعمل التحاليل والأشعّات اللازمة.. اختلط عليّ أمر المسكّن.. اختلط مع مجموعة من المواد المخدِّرة التي كانت مستخدمة لعملاء آخرين على طاولة المعمل الداخلي للصيدليّة.. لم انتبه جيدًا لنوع المخدّر ولا جُرعته.. كنت أمارس عملي وأنا مُجهد أكاد أُجنّ من الرغبة الملحّة في النَوم.. كنت أمارس عملي ككل ليلة في مثل هذه الساعات،

مثل سائق يقود سيارته إلى منزله في الطريق المحفوظة وهو شبه نائم ومخدَّر الحواس!! ولم أنتبه إلى الخطأ الجسيم في الجُرعة إلا في ظهيرة اليوم التالي.. لم أكن أعرف شيئًا عن هُوية الشخص الذي تناول الجُرعة القاتلة.. ولم يصلني ما يفيد بوفاة مفاجئة لأحد الجيران.. مرَّت الأسابيع وأنا في غاية القلق والاضطراب.. لا يمكن أن ينجو من هذه الجرعة القاتلة إلا مُدمن عتيد لنوعيات مختلفة من المواد المخدّرة.. لم يكن هذا المريض الذي حقنته بالجرعة القاتلة يبدو كمدمن محتمل لأي نوع من المخدّرات.. لكنّه مع ذلك لم يمت.. أو على الأقل لم أسمع بوفاته!! عشت في هذا الصراع النفسي الرهيب، أنظر إلي أمّي التي أضحت بقايا إنسان لتصل بي إلى المكان الذي وصلت إليه، وإلى خطيبتي حلم حياتي متألمًا.. هل تراني خذلت الجميع وتحوّلت إلى قاتل؟!.. منذ عدّة أيام قادني حظّي العاثر.. أو لعلّها عدالة السماء إلى تلك الصفحة.. دخلتها بمحض المصادفة المجرّدة.. رأيت عدّة صور من زوايا مختلفة للرجل الذي حقنته بالجُرعة القاتلة.. تابعت الصفحة خلال تلك الأيام، وأنا أتأكّد في كل لحظة أنّني بعيد تمامًا عن أيّة شُبهة.. ليس لي أي علاقة بتلك القضية.. سأفلت من عقاب الدنيا لا محالة من ذلك.. فهل نجوْت من عقاب الضمير الإنساني.. مطارق الحدّاد تدقّ في رأسي دقّات هائلة ترتفع مع مرور الدقائق.. ستقتلني انتقامًا لروح الفقيد، لم يعد عندي شك في ذلك.. هذه سيدي.. أو سيدتي هي قصتي كاملة مع الجُرعة القاتلة.. وأنا على أتم الاستعداد لدفع ثمن خطئي.. مع أول إشارة أو إشعار لتلقّي هذه الرسالة والاهتمام بها، سأوافيكم بكل التفاصيل والمستندات ليتم إبلاغ السُلطات واتخاذ الإجراءات اللازمة..

ثم أعقبها بالتوقيع: "الصيدلي القاتل"..

نهض عماد يسير في غرفته في مسارات دائرية لا يدري نوعية المشاعر الغريبة التي تنتابه.. فتح النافذة غير مراعيًا عمل مكيّف الهواء.. وظل يستنشق الهواء وينظر إلى السماء الصافية قُبيل بزوغ الفجر..

تمت